مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة
1997 ١٩٩٧

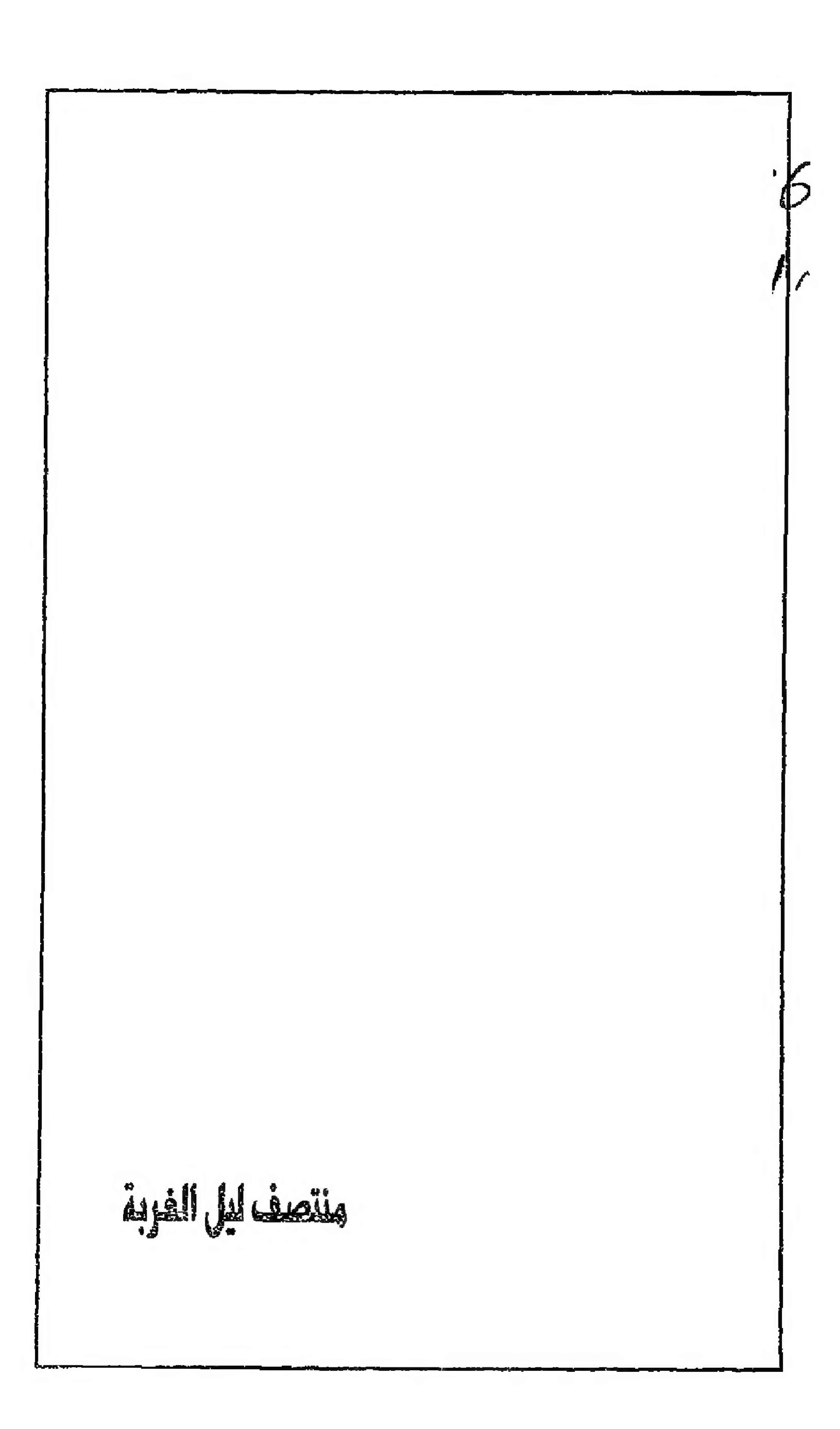
الأعمال الإبداعية

جمال الغيطانى

منتصف ليل الغربة



الهيئة المصرية العامة للكتاب



منتصف ليل الغربة

منتصف ليل الغربة

جمال الغيطانى



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

منتصف ليل الغربة

جمال الغيطانى

لوحة الغلاف:
للفنان جمال قطب

تصميم الغلاف:

الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وأن مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

وقائع
حارة
الطبلاوى

مذكرة ايضاحية حول واقعة
رقم ١٠٦ قسم الجمالية «القاهرة»

انه فى يوم الاثنين ، وفى التاسعة صباحا ، حضر الى قسم الجمالية عدد خمسة أشخاص ، من سكان حارة الطبلاوى ، ثلاثة ذكور ، واثنان اناث وبيانهم كالآتى :

١ ـ حسن أفندى متولى : موظف بادارة مكافحة الدودة، قسم الفقس ، وزارة الزراعة .

٢ ـ فارس سعد (الشهير بأبى قورة) : صاحب مقهى بالحسينية :

٣ ـ شمعه لطفى : حكيمة بمستشفى الآزهار النموذجية .

٤ ـ عويس يونس : فران بناحية كفر الزغارى .

٥ ـ محاسن حسن : مدرسة ابتدائى ، تعمل بمدرسة النحاسين الابتدائية ٠

وتولى حسن أفندى متولى الحديث نيابة عنهم ، فأدلى بالبلاغ التالى :

« انه منذ ستة أيام قام دحروج النمرسى ، اعتبارا من الساعة الواحدة صباحا ، وحتى السابعة ، بدون انقطاع ، بمخاطبة أهالى الحارة مستخدما بوقا مما يستعمله شرطة المرور فى الميادين والطرقات العامة ، وسبب ازعاجا للسكان ، علما بأنه يبتدىء كلامه بعبارات بذيئة ، تسب أهالى الحارة كلهم ، وتصفهم بأقبح الألفاظ ، وأنتنها وتمس العرض والشرف ، ونتج عن هذا اقلاق راحة المرضى ، والاضرار بصحة الحاج أحمد العتر تاجر الورق ، الذى يعالج منذ عامين بسبب أعصابه ، ولما زاد الحال ، توجه اليه عدد من سكان الحارة وجيرانه القدامى ، وطلبوا منه الكف فردهم بعنف ، وطالبهم بفعل مافى وسعهم ، وكرر مرات أنه حر ، ولايعنيه أحد ، ولايوجد نص قانونى يعاقبه ٠ لأن الجهاز الذى يستخدمه لايخضع للقيود المفروضة على استعمال مكبرات الصوت الكهربائية ، وذكر أرقام مواد ونصوص قانونية ، ثم حدثهم عن ماضيه الطويل ، اذ

عمل جنديا في الخـدمة السرية لقـوات الأمن العـام ، وأعلن (هناك شهود على ماقاله) ، أنه خرب بيوتا عامرة خلال خدمته ، وأن أحد أقاربه يعمل الآن بمنصب هام للغاية ، ويقوم بتمزيق كافة الشكاوى المرسلة ضده بعد اطلاعه عليها واحدة ، واحدة ، ثم أغلق الباب بعنف ٠ وفى الواحـدة صباحا بدأ حـديثه اليومى ، قذف من جاءوه واحدا واحدا بألفاظ بذيئة ، وعبارات غريبة ، عندئذ أطل بعض المسنين ، صاحوا عليه راجين السكوت، واحترام الجوار ٠ فالنبى عليه الصلاة والسلام أوصى على سابع جار ، وهنا زاد بذاءته وسبهم بألفاظ تخدش رجـولة كل منهم ، وأطلت غويشة امـرأته لأول مرة ، وأعلنت وقوفها بالمرصاد لكل من تسول لها نفسها التهجم عليها ، أو على زوجها ٠ وقالت انهـا صاحبت حـريم الحارة والحى أربعين عاما ، جمعت لزوجهـا دحـروج معلومات تكفى لسد كل بيت بالجبس ، ثم ذكرت أمثلة، وسبب وقوع مشاجرات بين أفراد عائلات لم يسمع لهم حس من قبل ، مما اضطر السـكان بعد سـتة أيام من العذاب المتصل اللجوء الى الشرطة ، وأنهى حسن أفندى أقواله مطالبا الأمن العـام بالتدخل لحمـاية الأهالى من المذكور وامرأته غويشة ، فالبيوت العامرة تكاد تخرب ٠

ومن ناحية أخرى أفاد مسعد أفندى القاطن أسفل المذكور ، آنه سمع مكبر الصوت أول ليلة وقيل فيه : «آلو ٠٠ آلو ٠٠ واحـد ٠٠ اثنان ٠٠ ثلاثة ٠٠ الخ» وتلاوة البسملة عدة مرات ، وبعض آيات الذكر الحكيم، عندئذ طلع الى دحروج ظنا منه أن مصابا وقع ، ممـا استدعى تجربة مكبر الصوت في هذه الساعة المتأخرة تمهيدا لتلاوة القرآن في اليوم التالى ، وعنـدما طـرق الباب فتحت غويشة وقالت بدون مقدمات «أخيرا حانت الساعة» ، ولم تدع فرصة لمسعد أفندى كى يستفسر عن أى ساعة تقصد «انمـا أكملت» دحـروج سيحقق ما انتوى ٠٠ قل لجيرانك ، وجيران جيرانك ٠٠ أخيرا ٠٠ حانت الساعة ٠ ثم أغلقت الباب بعنف ، وأقسم مسعد أفندى على صـحة ماحـدث بفتحه المصحف على سـورة ياسين ، ووضعه على عينيه وأقسم يمينا ٠

كما قدم المدعو فارس الشهير بأبى قورة ، شريطا سجل عليه بعض من أقوال المذكور عن طريق المكبر ، «تم تفريغ محتويات الشريط» واستعان بجهاز تسجيل ماركة جروندج خصصه لاذاعـة أغـانى أم كلثوم على زبائن المقهى ، وأفاد الجميع بأن الحـارة لم تعرف القلاقل من قبل ، وتعد من أهدأ الحارات وأقلها في عدد المشاغبات

والحوادث نادرة بها ، وسكانها مسالمون لايميلون الى ازعاج الغير ، ويحترمون القوانين والجوار الذى لايقل بالنسبة لاحدثهم عن عشرين عاما ، وأبناؤها التلاميذ متفوقون ، ومنذ عشر سنوات جاء ترتيب سيد ابن الحاج نصيف الثالث على شهادة الاعدادية (وطالبوا باجراء بحوث وتحريات تثبت هذا) والآن لايستطيع الطلبة استذكارا ، بسبب أعمال المذكور دحروج وامرأته غويشه» .

ملحق ١

«محتويات شريط مسجل عليه بعض أقوال المذكور، ولم يتضح فى هذه التسجيلات ، هل تمت ليلا أو نهارا ، ولم يعرف تاريخ كل منها ، برجاء وضع ذلك فى الاعتبار» :

١ ــ .. الا اذا اطلعتم بانفسكم ، ورأيتم مارأيت . وهذا مستحيل ولم يتوفر لانسان قبلى ، أذكركم هنا بالمهن العديدة التي عملت بها ، اتقنت كل منها . قضيت بها زمنا ، أذكركم بآخر أعمالى ، خدمتى خمس عشرة سنة فى صفوف الخدمة السرية بالأمن العام ، تنقلى بين جميع المديريات ، والمراكز والقرى ،

سفرى الى بعض بلاد العالم فى مهام خفية ، لن أتحدث عن تفاصيلهـا الآن ولكن سـيحين الوقت ، سـتذهلون ذهولا عظيمـا وتقولون ، كيف عاش بيننـا ؟ أكثر من ثلاثين عاما تواجدت بينكم ، هل شعرتم بى ؟ هل عرفتم أمرا واحدا عنى ؟ هل سمعتمونى أتحدث عن أحد بما لايليق ؟ طـال صمتى والآن يمكننى قـول مافى قلبى وعقلى ، سـتجدون كلامى شيقا ، البعض سـيضيق به مؤقتا ، لكنهم فى النهاية سيوجهون الى شـكرا ، لأننى قومت حياتهم وأظهرت ماتعرفونه • ولكنكم تتجاهلونه، لكن العذر حق لكم ياأهـالى الحارة المسـاكين ، من لديه خبرة عمر مثلى ؟ من أمسك ببواطن الأمور ؟ من أدرك الحقائق الخفية مثلى ؟ •

٢ ــ •• يامعلم يونس ، والله أرثى لك ، سخرت منى ولن أرد عليـك خـذها منى نصيـحة ، أنا لاأحب الشـجار ، ولا الوقوع فى مشاكل ، طول عمرى لم أقع فى مشكلة ، لم أقدم كمتهم الى أى مسـئول ، لأننى من زمن طيب ، زمن حلو ، زمن عائق ، رائق ، غير زمانكم الموحل ، الأغبر ، لكننى سأقوم المعوج فيه ، أدبر أموره وأوجهه ، يامعلم يونس ، أنا لن أفضـحك لكننى أنبهك الى ماغاب عنك ، طبعـا تعرف دكان المعلم ماهر المنجد

فى بيت القاضى ، كلنا ، كل آهالى حارة الفقس هذه ٠٠ كلنا نعرف يامعلم ٠ من يدخل بيتك بقرطاس الفاكهة كل آحد وأربعاء أنت تخرج حوالى العاشرة ويستلم مكانك فى الثانية عشر ، العيون تحفظ منظره بالجلباب الأبيض ، بخواتم الذهب والصندل البنى ، الحارة كلها تعرف ولا آحد يخبرك ، لماذا ؟ لأن . سكانها عندهم مايكفيهم ٠٠ و ٠٠

(ضجة ، تصفيق ، أشياء تسقط ، أصوات ٠٠٠)

٣ ـ ٠٠ قبل أى كلام ، انتبه ياحسن أفندى ، ياراجل ياذودة ، أنا لايفوتنى شىء ابدا ٠ مامن نفس زائد لديكم الا أحصيته ، مامن همسة الا وترجف طبلة أذنى هنا ، ألا تعلمون أن جدى كان عالما كبيرا فى الأزهر وأنه ترك لى مخطوطا قديما وعلمنى كيف أستخدمه ، فأعرف منه المستقبل الآتى ونهاية أعماركم، ألا تدركون أننى تلقيت أمرا بالحديث اليكم عن طريق هذا المخطوط ، يمكننى أن أنبيء كل منكم بيوم يحين فيه أجله ، ومن لديه هذه المقدرة لايغيب عنه ذهابك الى قسم الجمالية ، تزعمك وفدا ضدى ٠ شكوتنى ، طلبت ابقاء اسمك سرا وهذا جبن ، العجيب أنكم جميعا جبناء ، هذه سمة يتيمة توحد بينكم ، اذا خفت منى

أنا الفقير الضعيف الذى ناهز السبعين فلماذا لاتخش الله خالقي وخالقك ؟ بلغنى ماقلتـه عنى أمام مقهى البنان ، ماجرحت به امرأتي غويشة ، تهديك بأقاربك في وزارة التموين ، ماذا تظنهم فاعلين ؟ اعلم يأحسن .. ياأهالى حارة الطبلاوى الكرام ، أن ابن خالة امرأتي غويشة كونستابل ممتاز ، ولاينقطع عن زيارتنا ويرجونى كثيرا أن أرد زياراته لدرجة أنني خجلت منه واعلموا أن علبة سجائره تحت أمرى ، أسحب منها وقتما أشاء ولكننى لاأستعين به قط على أعدائي ، لأن أحوالي وأمورى التى لن أبوح بها قط تحمينى وتجعلنى ....

«امرأة» : الرأى لك يادحروج ..

ـ لن أرد على ماقاله الحاج سنوسى بائع العطر .

«امرأة» : وصفك أوصافا دنيئة يادحروج .

ـ لن أخرب بيتـه ياغويشـة ، لن أذكر مصنع العطور الصغير داخل شـقته .. الحاج يتهرب من الضرائب ياغويشة ومن التأمينات الاجتماعية ،ويستخدم أولادا صغارا .

«امرأة» : ياخبر .. والنبى لاأعرف هـذا كله . تصور أنه يلف على صفوف المصلين فى الحسين . يمسح أيديهم بالعطر ويبيع زجاجات صغيرة يقول عنها . بركة من عند النبى ، بركة من المدينة المنورة .

٥ ـ .. ياأهالى الطبلاوى ، يامساكين ، ياوجوه النحس ، ياأشـقياء عندما أطهر حيـاتكم من الكذب . عندما أزيح عنكم النفاق والاضطراب ، وأنظم أموركم بطريقتى ، سأنزل اليه ، وأطلب منكم أن تحكموا عليه ، وتلقنوه درسا .

٦ ـ .. مثلا ، امرأة عمى بدوى عساس البهائم فى الأسـواق تتحـدث دائمـا عن أقاربها فى مصـلحة السـكك الحديدية ، والذى . والثروات الطائلة ، دائما تكلمكم عن أهل زوجها الأشقياء الذين نهبوا نصيبه فى الميراث ، عم بدوى يرفع عليهم القضـية ، لهـذا فثمة ثروة ستأتيه يوما ، عندئذ تشترى الست نعيمة بيتا فى مصر الجديدة حوله حديقة ، وتملاه أثاثا فاخرا وتفارق الحارة القـذرة ، وأهلها الانجاس ، ياأهالى الطبـلاوى البلهـاء ، لأننى أعرف كل كبـيرة وصغيرة لأننى أعلم خباياكم ، ماتظهرون وماتبطنون ، لهـذا سـأقول لكم الحقيقة ، السـت نعيمة التى تتعالى علينا ، تحدثنا عن

طرف أنفها ، لا أقارب لزوجها كما تقول ، لهـا أخت صغيرة لاتدرون عنها شيئا أسـمها راجحة ، وتسـكن بدروما قديما في حارة سيدى معاذ ، زوجها بائع هريسة متجول ، وحتى التزم الدقة ، أقول انه يبيع بطاطا فهو يمتلك فرنا فوق عربة يد ، راجحة تساعده في كسـب العيش ، هل تدرون كيف ؟ عندما تتشاجر امـرأة مع جارتها تذهب اليها ، تمنحها قروشا قليلة ، أو ، قطعة لحم في رغيف وتسـتعين بها ، أخت السـت نعيمة لهـا محاضر عديدة في البوليس ، وعندما تقل المشـاجرات تحترف النـدب ولطم الخـدود وراء المـوتى ياأهـالى البلاوى ، ياأكذب خلق الله في زماني البعيـد الطيب ، وأين أنتم من زماني ؟ أمثـالكم لايسـمح لهم بالعيش فيه ، آه ٠٠ راح زماني الأخضر ، أيامه هنيات ، كنا في الليل نسمع الأغاني في المقاهي الدافئة ، نشرب الزنجبيل والقرفة ، نصلى الفجر ، في نفس هـذه الحـارة ينزل الرجـال يصيحون على بعضهم ، كل منهم ينبه الآخر ، وفي الليل الرائق تسـمع القباقيب ، والماء والوضوء ، ثم نخرج جماعة الى الحسـين ، ونقابل النهـار بوجوه سمحة ونفوس راضية ٠ في زماني رأيت الأمان ذاته ٠٠ لا انسـان يخاف على ماله أو أولاده أو بيته ، وكلمـا رأيت مايجرى بينكم يدركني والله رعب ولكنني ملازمكم

حتى أقوم المعوج وأعيد السيرة الصافية هنا فى حارة الطبلاوى وليلحقنا باقى الدنيا ، لن أسمح بتكرار ماقامت به الست نعيمة عندما زارت جارتها أم سهير ، وعندما دخلت لتعد شايا ، مدت يدها ودست ورقة نقدية قيمتها خمس وعشرون قرشا فى صدرها ، أنا الآن أدفع التهمة من مجدى الابن الوحيد للست سهير والمتهم ظلما ، والمهم ·· اننى لن أطيل عليكم ··

٧ ــ «اصوات مرتفعة» ياكلب :

يا ··· اذ ··· اذ ···

٨ ــ ·· أرجوك يامسعد أفندى ألا تتساءل ماوصلنى وصل وانتهينا ، وأنا واثق أنك وحدك تعلم مقدار النقود التى تخبئها ، الفلوس الفضية القديمة ، الفضة الحقيقية ، فئة القرشان والخمسة قروش ، والعشرة · أعرف عدد علب الصفيح المصفوفة فى منزلك ، وهوايتك ليلة الجمعة عندما تفرغ العلب من محتوياتها ، وتنشىء اكواما من النقود ، تغير أشكالها كما تشاء ، ثم تغسل النقود كلها فى طشت نحاسى كبير ثم تنام نوما هانئا ، بسبب هذه القطع من العملة والنقود الأخرى التى لن أذكر مكانها · لم تتزوج ، ذاب عمرك فى عملك · أذكرك بما فعلته الست نعيمة عندما سرقت

مبلغا تافها من أم سهير ! تعال نبحث عن السبب معا ، ثم دعني أقل لك كيف نمتع وقوع هذا ٠

٩ ــ ٠٠ ياولد ياجابر ، ياسعيد ، زمانكما أجرب، لم تذوقا طعم النساء ، لم تستمتعا باى شيء ، لو بيدى لحررت لكما جوازى سفر تهاجران بهما الى زمني الأول، فيه عرفنا الأبكار الحقيقيات ، رأينا الحياء على حقيقته ، ذقنا المتعة ، الأنوثة الريانة ، كل ماتبنالانه وقفة بلا جدوى أمام مدخل الحارة ، أصغيا الى ٠

١٠ ــ وأثناء قيام السيدة لواجظ ٠

١١ ــ ٠٠ أحمد العطار الشاب العفى الذى يركب الكبير قبل الصغير ، الفائح الرجولة ، هيه ٠٠ لكنه زمن مائع ، لايعرف فيه الرجل من الأنثى ، فالمقلوب معدول، والظاهر باطن ، ولاحول ولا قوة الا بالله العلى ٠٠

بعض الوقائع

٠٠ كل ماقاله دحروج . كتبه عبد المقصود أفندى ، لديه خبرة عمر فى كتابة العرائض والشكاوى ، يعرف المدخل المناسب لكل شخصية وذى منصب مايجب قوله ، ومالايقال ، ذكر ماقيل فى حق امرأته ومايسيء الى فوقية ابنته التى دخلت سن الزواج ، ماسيلفت نظر

المسئولين بوزارة الداخلية بالذات هـذا المطلب العجيب الذى وجهه المدعو دحروج الى الاهالى ، ضرورة تعديل أوقات نومهم ، بحيث يأوى الجميع الى أسرتهم فى تمام الرابعة والنصف بعد الظهر كل يوم ، مع مراعاة ظروف الذين يعملون فى نفس الفترة ، ثم يوقظهم دحروج عن طريق مكبر الصوت ليتحدث اليهم ، وينظم أمـورهم ، لم يكتف بهذا بل منح الأهـالى مهلة قـدرها ثلاثة أيام يتحولون فيهـا من نظام الى نظـام ، يغيرون عاداتهم ، عبد المقصود أفندى سطر خطا ثقيـلا بالمداد الأحمر ، تحت حديث لدحروج ، قال فيـه : «منـذ الآن حـارة الطبلاوى لها ناموس غير النواميس» .

الآن يضيق عبد المقصود أفندى ، اضطر الى ذكر أقوال دحروج حول امرأته وجيدة ، سيفضح نفسه ، لكن من الضرورى جدا اثباتها ، اذ أنها التهمة الوحيدة الواضحة التي يمكن أن يعاقب عليها طبقا للقانون ، يتململ عبد المقصود أفندى اذ يتخيل تهامس النساء فوق السلالم حول زوجته «المرأة جنت على كبر» تؤكد أخرى أنها تعرف ماقاله دحروج من قبل ، وسكتت طويلا حتى لاتنهش عرض جارة قديمة ، مايطمئن قليلا أن دحروج حذر كل انسان ، رجلا أو امرأة ، من تناول مضـمون

حديثه بالزيادة أو التشويش ، لكن هل يكفي هذا لربط الألسنة ، قام ، تحسس الأرض بحثا عن شبشبه ، قضى اليوم كله في البيت ينسخ العـريضة ويرقب تصرفات وجيدة ٠

نظراتك غريبة ياسى عبد المقصود ٠

استعاذ بالله ، يحاول ألا يعلو صوته ، كل حركاته ونظراته تفسر الآن ، كل ماتقوله هى يتحلل فى ذهنه الى حيرة ، الى استفسارات ، استجابتها أسرع مما يجب لطلبه يمنعها من الطلوع الى عشة الفراخ فوق السطح ، حجرة الأسطى عبده بمواجهتها ، ســائق النقل العــام بمفرده ، ينام اليوم كله ، ينزل فى المغيب ليتسلم نوبة عمله ، ينظر الى امــرأته ، ينهض صــدرها ، لم تغب ملاحظته عن عين دحروج ، بل سخر قائلا : «هل يوجهه الأسطى عبده كما يمسك مقود العــربة» ٠ مايضــايقه اضطراره الى ذكر هذا كله فى العريضة ٠ ربما سخر منه المسؤولون ، لكنه أحكم الصياغة ، عدد من الجيران علموا بنيته فى ارسالها ، أبدوا بشرا وعلقوا آمالا ، يعرفون شهرته ٠ بل ان أحــدهم قال بالنص : «هــذه العريضة ستذبح دحروج ذبحــا» لكن عبد المقصــود الآن يتنفس ببطء ، لم يتشاجر مع امرأته يوما ، حتى بعد انقطاعهما

عن بعض فى السرير ، يذكر الآن حـديثا لحسن أفندى متولى عن شهوة بعض النساء اذ يبلغن الخامسة والأربعين، يطشن ، ألقت ساعة الحائط ثلاث دقات مختصرة ، بعـد غد يحين انتهاء المهلة المحددة ليبدأ جميع أهـالى الحارة نومهم فى الرابعة والنصف ، سمع امرأته تتثاءب ، نظر اليها ، وحنق فى عينيه ٠

(٢)

باق عشر دقائق ٠

فى الواحدة يعلو مكبر الصوت ، يزن قليلا ، يلقى دحروج تحية المساء ويلعن الدنيا القائمة، ويرثى الزمان القديم ، ويؤكد أنه سينتظر كل شىء ، ثم يتلو ماوصل اليه من أخبار ، يرد عليه البعض ، وتلقى الحجارة على نوافذ شقته المقفلة ، مهما حدث لن يفتح الحـاج حمزة جزءا من نافذته المطلة على الحارة ٠ حتى الآن لم يتعرض له دحروج ، مع مرور الأيام ، وقيام الهياج فى الحارة ، أيقن الحاج حمزة أن إعتبارات عديدة تدخل فى امتناع دحروج عته ، أهمها أنه قضى أكثر من ثلاثين عاما ناظرا لمدرسة كتخدا الابتدائية ٠ تلاميذه أصبحوا الآن رجالا، يقابلونه فى الطريق ضباطا ومهندسين وكتبة فى المصالح

الحكومية ، يصافحونه فى المقهى اذ يجلس مرتديا جلبابه الأبيض متأملا لاعبى الطاولة ، أيضا ربما يعلم عنه دحروج موقفه عندما عرضوا عليه منذ عشر سنوات الانتقال الى مدرسة الروم الابتدائية مع ترقيته ناظرا ، لكنه رفض ، آثر البقاء فى الحى الذى ارتبط به ، ومرت أربع سنوات كاملة قبل أن يصبح ناظرا لمدرسته ، يعرف أن دحروج لم ينجب ويرثى له ، بالتأكيد يعانى ضيقا وآلاما ، لو أنجب طفلا وألحقه بالمدرسة لأولاه عناية خاصة ، الآن لايضيق بازعاج دحروج ، ليفعل مايشاء ، ليسب آهالى الحارة ، ليعيد الأمور فيها كيفما يشاء ، فعلا كثير من الأوضاع يجب تقويمها ، ليحدد للسكان نوعيات الطعام التى يجب أن يأكلوها يوميا ، المهم ٠٠ ألا يذكر شيئا عن بناته ، دحروج عالم بكل شيء ، مطلع قطعا على أفكاره الودية ، انه أول من ينفذ تعليماته ، عندما طلب أن ينام الجميع فى الرابعة والنصف ، أسرع الحاج حمزة بتطبيق هذا على بيته قبل انتهاء المهلة بيوم ، بناته أبدين ضيقا وامتعاضا ، أجبرهن على طاعته ٠ لابد أن يتأكد لدى دحروج أن الحاج رجل طيب ، مرب فاضل كما تتحدث عنه كلمات الطلبة فى المدرسة ، كما وصفه المدير فى العدد السنوى من مجلة المنطقة التعليمية ٠ فى كل

ليلة يصغى اليه ، اذ يسكت دحـروج لحظـات يمسك أنفاسه ، خشية أن توجه الفقرة التالية ضده ، تتعاقب عليه الانفعـالات • مايرعبه أن يتحدث دحـروج عن البنات ، بالأمس أبدت سعاد ابنته ضيقا ، تعودت عمرها كله استذكار دروسها من الخامسة حتى الحادية عشرة ثم تنام ، كيف تغير نظامها وامتحان التوجيهية مقترب ، أحاطها بذراعيه ، دفعها أمامه ، كاد يكم فاها ، قال : لاتزعقى ، عمك دحروج لم يتعرض لنا ، عمك حر •
صـباح اليوم جـاء بيومى السـائق بمصلحة السكة الحديدية ، قدم اليه عريضة قال ان نصف سكان الحارة وقع عليها ، والباقى سيوقع ، سوف تحـدث العريضة صدى كبيرا لدى المسئولين ، خاصة بعد طلبات دحروج الغـريبة من الأهـالى ، واصراره على نومهم مبكرين ، وتوحيد طعامهم اليومى ، على أن يتولى الطهى بيتان أو ثلاثة يوميا لكل الأسر ، مقابل مبلغ يتفاوت طبقا لقدرة هذا وذاك يدفع أول كل شهر الى حسن أفندى متـولى شخصيا . قال بيومى ان المسـئولين سـوف يتدخلون فورا ، لأن العريضة سـترسل بالتلغراف ، والمطلوب فقط قرشان والتوقيع ، الحـاج حمزة لم يدع بيومى يكمل ، تفجر هدوء عمره كله •

أسرع يطل من النافذة ، زعق مخاطبا أهالى الحارة بيومى وغيره - مع أن بيومى يقف فى الصالة ، انه لن يوقع على أى عريضة ضد جاره القديم دحروج النمرسى ، (وهنا علا صوته تماما ، وهذا مالم يعهده أهالى الحارة) - انه غير منزعج أبدا ، ومايفعله دحروج من حقه تماما ، سكت لحظة ثم زعق انه لايمت بصلة الى حارة الطبلاوى ، ولايعتبر من سكانها لأن مدخل بيته وشرفته الرئيسية تطل على شارع قصر الشوق ، أما النافذة التى تصله بالحارة فسيرسل فى طلب نجار ليسدها فى الحال ، برغم هذا سيصغى الى دحروج ، وينفذ كل مايأمر به ، خاصة وأن صحته وصحة الأولاد تقدمت بعد نومهم مبكرين ، انه ينصح جيرانه نصيحة لوجه الله : الحذار ، الحذار من أى عمل خفى ضد دحروج ، لان الرجل مكشوف عنه الحجاب ، والا .. كيف تأتى له معرفة نص عريضة عبد المقصود أفندى كاملا ؟

(٣)

فترة تلى آذان الفجر ، يتحلل على مهل سواد الليل، تولد ملامح البيوت . تتخلق الوانها من جديد - ومن نبع خفى يطل بخار أبيض منظور عالق بالفراغ . بلاط

الحارة يلمع تحت ضوء الفانوس الغــازى الوحيد الذى يبدو يتيما شاحبا ، في مواجهة ضوء نهارى وليد ، ومن نافذة متسعة ، فى الطــابق الأول ، بالمنزل الرابع ، تطل الست روحية مع أولادها السبعة • صامتون يصغون الى مايقوله دحروج ، أيضا عائلة أم حسنى حتي الجدة العجوز ، منــذ فترة وجيزة سكت ، بدت نافــذة بيته مغلقة ، بنية اللون ، لم يرها أحد تفتح أبدا ، يعرفون أنه لن يكف تماما الا فى تمام السابعة ، لهذا ينتظرون الآن استئناف الحديث فى أى لحظة • فجأة انبثق صراخ رفيع ، حاد مسنون ، عويل متأن يبذله الجسم والنفس معا ، ممدود مقبض ، فيه خلاصة العجز الانسانى فى مواجهة أمر قاهر ، بدأ فرديا ثم أصبح جماعيا غليظا عبوسا ، نظر الساهرون من السكان الى منزل صالح أفندى ، فتحت نوافذه بصعوبة ، خرجت كلمة من بين العويل ••

ياخويا ••

استعاذ أهالى حارة الطبلاوى بالله ، كلهم بدون استثناء ، بدا خوف غامض على وجوه السيدات ، ينظرن الى نافذة دحروج المغلقة ، وكأنها باب للفرج أوصد ، أول أمس صاحت امرأة صالح أفندى فى تمام الثانية

صباحا مخاطبة دحروج ، تحدثه ·· اذا أحاط بكل مايجرى بالحارة ، طالما أنه أوتى معرفة ماسيحدث ، وبعض الأهالى يقولون برفع الحجاب عنه ، فليقل لها اذن : هل سيشفى ابنها تيسير ؟ وحيدها المريض منذ عام ، الذى حارت به ، ولفت على جميع المستشفيات · يذكر أهالى الحارة الآن صمت دحروج ، ثم قوله المقتضب : «ياأم تيسير ، لو طلعت شمس يوم الثلاثاء على ابنك ، ووجدته حيا سيعيش مائة سنة» ثم استأنف كلامه المادى · الآن ، يبدو الثلاثاء جهما لايطاق ، وتذوب الأحشاء فى العويل القاسى ، والشمس على وشك الشروق ·

(٤)

حتى مغيب اليوم التالى على ما أذاعه دحروج · لم تدر حسنية ماذا تفعل هل تذهب مع أولادها الأربعة الى ورشة الحاج بندق صانع التماثيل الخشبية ، تولول ، تجمع عليه الخلق ، تحكى كيف تزوج فتاة صغيرة ، ويبالغ فى تدليلها ، ولايعطى بيته مصروفا كافيا · لم تقصر فى حقه ، بداية حياتهما هنية طرية ، فى سنين زواجهما الأولى · رأت امرأة شعثاء جاحظة ، تدفع سربا من الأطفال ، وتحمل رضيعا ، تقف أمام دكان

موبيلياتى ، تطالبه بالمصروف ، تركها منذ آسابيع ، تذكر الدم المتدفق الى وجه المرآة ، عروق رقبتها النافرة الزرقاء • يومها قالت «بندق لن يفعل هذا بى آبدا» ، قبل عودته تطمئن الى نظافة البيت ، تمشط شعرها ، تتهيأ لاستقباله ، تروى بدنها بالأطايب ، حتى تبدو ريانة يستريح اليها من عناء يوم طويل ، الآن لاتجرؤ على الذهاب الى الورشة ، ربما يبهدلها ، ستجرى فى أروقة المحاكم ، تتوه فى طرقاتها • فى نظرات الكتبة الشبان والعجائز ، تبلى فى الانتظار ، لاتقدر على العودة الى البلدة ، شقيقها لن يحتملها مع آولادها ، لن تطيق نظرات الحريم ، يقلن فيما بينهن «لم تنفع فى مصر» لاتدرى ماتفعله الآن ، هل ترمى نفسها من الطابق الرابع ؟ تتخلص من ضيقها ، تنهى أوجاعها ومصائبها ، اذا لم تمت ربما قضت بقية عمرها عاجزة لاتصلح لعجين آو خبيز آو غسيل ، من يدرى ربما يرق قلبه اذ يراها مصابة ، يحن ويرجع الى آولاده • جاراتها نصحنها بالمضى الى دحروج ، تقف تحت نافذته ، ترفع صوتها راجية آن يدلها آى السكك تسلك ؟ •

(٥)

•• أمام جامع سيدى مرزوق ، يقف حسن آفندى

متولى ، يقرأ الفاتحة ، فيما بعد لم يدر الحاج بيومى هل تم اللقـاء مصـادفة أم تعمـد مقابلته ؟ عينـاه حمراوان ، لم ينم ليل الحـارة ، لم يتعود على النوم فى تمام الرابعة والنصف لايمكنه الآن الا الاضطجاع أثناء حديث دحروج ، قال حسـن آفندى انه لافائدة من أى عمـل تم حتى الآن ضـد دحـروج ، حتى عـريضة عبد المقصود أفندى المشهور بصياغة العرائض وحبكها لم تأت بنتيجة ، بل ان أحـد صـورها المرسلة الى جهـة رسمية أعيدت اليه لآن البريد لم يسـتدل على عنوان احدى الوزارات ، ثم ماهى حال عبد المقصـود الآن ؟ بيته خرب بعـد عمار ، هجرته الست وجيـدة بعد أن أغرقها بالشـك ، قـال حسـن آفنـدى ان مايقوم به دحروج لايوافق عليه ، وهو لم يقصر فى سبيل ايقافه عند حده ، وآهالى الطبلاوى يعرفون كلهم ، الكبير منهم والصغير أنه أول من ذهب الى القسم على رأس وفد من الحارة ؛ وقدم بلاغا وقع عليه ، وأملى بصوت عال رقم بطاقته العائلية ، وحتى الآن لم يحـدث أى اسـتدعاء لدحروج فلم يره أحد يخرج من بيته ، لم يظهر لدرجة أن بعض الشبان المتهورين الذين لايدرون آخر العواقب، قالوا فيما بينهم لاوجود لرجل اسمه دحـروج ، والا فأين هو ؟ أما الصوت الذى يخاطب الأهالى ، فربما كان

بعض الأشقياء يريدون فرض أمور خطيرة على الحارة ، وما الصوت الا تسجيل يضعونه بين الحين والحين . وربما تتعرض الحارة لظاهرة خفية ، وأمور غير مرئية ، وعندما ذهب أحدهم الى بيت دحروج ، تناقش مع مسعد أفندى ، اكد له وجود دحروج وامرأته غويشة . وهذا أمر لاينكره الا أجنبى عن الحارة أو مجنون ، لأنه يعيش بينهم طوال عمره ، صحيح لم يسمع له حس ، ولكنه لم يحتجب الا بعد بدئه الحديث مع الأهالى ، وقال مسعد افندي انه أدرى بوجوده لأنه يسكن تحته ، ويسمع صوت تحركه بالليل وبالنهار ، وهنا ارتفع صوت حسن أفندى ، هل تعلم ماذا جرى يوم أمس لشكرى ، أحد الشبان ، قال بيومى انه لايعرف بسبب تغيبه فى السفر . قال حسن أفندى : فى المساء قال دحروج كل ماتناقشوا فيه . وحذر شكرى مثير الشكوك ، ثم أنذره بعدم الذهاب الى امتحان الكلية ، ولو خالف فسيذيع الأدلة الدامغة بانتمائه الى احدى التنظيمات السرية التى تعمل ضد الحكومة . قال حسن أفندى أيضا ، انه رجل هادىء بطبعه لايحب الازعاج ولايطيقه ، قال حسن أفندى انه يؤمن بعدم فائدة النطح فى الحجر ، وان النقش على الماء عبث . والنفخ فى قربة مقطوعة مضيعة للوقت . لهذا كله . ولأسباب عديدة ، بعضها خفى ،

وبعضها معلن ، يرجو من الحاج بيومى سحب توقيعه ٠ قاطعه الحاج قائلا انه أرسل العريضة فعلا ، صحيح أن السكان لم يوقعوا فعلا كلهم ، لكنه أرسلها حتى يحرك المسئولين ، استفسر حسن أفنــدى عن الجهــات التى أرسلت اليها العريضة ٠ وكتبها فى ورقة ، أبدى غما٠ قال انه سيرسل الى كل منهــا تلغرافا يعلن تراجعه ، قال ان الناس يحبون لبعضهم الأذى ٠ ولايصح للحاج ولا لغيره ارسال العــريضة بدون أخــذ آراء من وقعوا عليها ، احتد الحاج بيومى قائلا : مجرد التوقيع يعنى الموافقة على ارسالها ، زعق حسن أفندى ، أبدا ، أبدا ، لايوجد ولن يخلق من يعلمه الأصول، هو موظف الحكومة الذى قضى عمره بادارة مكافحة الدودة ، قسم الفقس ، علا صوت الحاج بيومى موضحا ، انه هو أيضــا موظف حكومى ، أليس السائق بالسكة الحديدية موظفا رسميا يقبض مرتبا شهريا ، ويتقاضى علاوات أكثر من التى يتقاضاها موظف فى الدرجــة الســابعة ، مط حسن أفندى شفتيه احتقارا ٠ توقف بعض المارة ، تجمعوا حولهما ٠

★★★

مشاهدات الرقيب صـالح عبده ،
بالأمن الخاص فى حارة الطبلاوى
عنـدما جـاء يسـتطلع الأحوال :

«ياحاج بيومى ·· ياحاج بيومى ··»

كان البعض يجيب بتصفيق مماثل ، الضوء عال، والنهار شاحب مرتحل · هدوء ثقيل مراق بسـخاء ، منذ دخوله الحارة لم ير طفلا ، أو امرأة ، عادة يتصايح الصبية حوله ، يمشون خلفه يتوقعون منه حركة عنيفة مفاجئة ، فيحتفظون بمسافة معينة ، ربما اتقن الأهالى هنا تربية أولادهم ، حرموا عليهم اللعب فى الحارة ، توقف فى الطابق الأول أمـام باب جهم المنظر ، خبط مرات ، لم يجب أحد ، دق الباب بعنف ، حركة صغيرة مترددة ، صوت شبشب ، عـاد يطـرق البـاب ، يأتى همس ، اثنان يتبادلان الحديث ، لم يدر أهما رجلان أم امرأتان أم رجل وامرأة ؟ صـفق مـرتين ، عـلا صوت :

ـ ماهذا الازعاج ؟ آلا نستطيع النوم فى راحة ؟

ـ الحاج بيومى موجود ؟

ـ فوق ·· فوق ياعالم · ارحمـونا ، ودعـونا ننام ·

طلع الحاج ملتفا فى عباءة قديمة من وبر الجمل ورثها عن والده ، عيناه ضيقتـان ، فيمها آثار نوم ، الشرطى صـالح لاتزعجه مثل هـذه المقابلات ، أمثال الحاج يتباهون قائلين : طول عمرنا لم نمض الى قسم بوليس ، ولم نقف أمام نيابة .

«أنت قدمت»

لم يكمل الشرطى صالح حديثه ، قاطعه الحاج ، صوته رفيع حاد كصفير قاطرة متحشرج .

ــ أنا لم أقدم ولم أشك من ..

ــ ولكن ...

ــ تنـازلت ياأخـى . تنـازلت عن الشـكوى والعريضة ، المصـارين تتصـارع فى البطن ، مابالك ونحن جيران ؟

ينظر الشرطى صالح دهشا ، قال الحاج انه تنازل عن كل شىء ، وأنه على اسـتعداد للذهاب الى السجن بسبب ازعاج السلطات ، لكن آن يسأل سؤالا واحـدا حول جاره العزيز : لا . ثم يجب على الشرطة اختيار الوقت المناسب للحضور الى النـاس ، أما اقـلاقهم فى أحلى ساعات النوم ...

نزل الشرطى صالح الى الحارة . نوافذ البيوت

مغلقة ، تلفت حوله حائرا • دخل بيت دحروج ، في منتصف الليل قبل بدء الحديث اليومي ، قيل ان دحروج خرج وتحدث للشرطي فعلا ، وان ضحكاته سمعت واضحة لمن لم يدركه النوم في المواعيد المحددة ، أيضا استفسر دحروج عن بعض الأشياء ، أبدى اهتمامه تجاه أسماء معينة ، أبدى الشرطي دهشة • قال دحروج انه يعرف هؤلاء كلهم ، وكبيرهم رهن اشارته ، ثم أوصاه باتمام اجراءاته على آتم وجه ، في هذه اللحظة دخل الحارة المعلم يونس الفرآن • رآه الشرطي صالح يرفع يده بالتحية اذ يمر تحت بيت دحروج ، النوافذ مغلقة لكنهم يثقون آنه يراهم ، يعرف من آلقى السلام ومن لم يلقه ، يعرف من جرؤ على تناول الطعام بمفرده خارج الحارة • أو في بيته ، الحاج حمزة يفتح النافذة يوميا قبل نومه ، ويزعق بالسلام حتى بعد تعرض دحروج بالكلام لابنته الصغرى ، وذكر بعض تفاصيل علاقاتها بمدرس الكيمياء • أم تيسير منذ رحيل ابنها، بمجرد أن يبدأ دحروج حديثه تنزل مهرولة بقميص النوم ، ترفع ذراعها زاعقة تحت النافذة : «الله أكبر •• الله أكبر» عليه وعلى شبابه ، دحروج بركة ، أى مخلوق يجرؤ على شكواه ستناله مصائب ومحن ، وتغرقه رزايا • حتى الحاج أحمد تاجر الورق ، المريض

بأعصابه ، قال لكل من زاره أخيرا : ان صوت دحروج الليلى لايزعجه بل ينبئه آن شفاءه سيتم قريبا ، وأنه قبل ماكلفه به دحروج من قيامه بدور الوسيط بين المتخاصمين فى الحارة • بعد فترة أيقن رأفة دحروج به ومراعاته لظروف مرضه ، لم يعد يتخاصم أحد ، ومن لديه وجيعة يمضى بها طارحا اياها أمام دحروج ، أسند اليه آخف المهام ، وفى الواحدة صباحا يقف بالشرفة ، ويضحك ، ويهز رأسه موافقا ، يصيح مستحسنا مايقال ، عند باب الحارة توقف الشرطي صالح عبده لم ير أحد ، لاينوى توجيه أى سؤال ، رأى طفلا صغيرا يتجه الى مدخل الحارة • لمعت عيناه لحظة واتجه الى الطفل • انحنى حتى قارب رأسه ••

ــ اسمك ياشاطر ؟

ــ سعد •

ــ انت من هنا ؟ من حارة الطبلاوى ؟

أومأ الطفل ، بدا قلقا ، الأطفال لايكذبون ، كواجب أخير سيحاول أن يعرف منه •

ــ يعنى ألم تسمع ميكروفونات أبدا بعد ••

هز الطفل رأسه • ابتسامة مرتعشة قلقة •

ــ خيالات ياشاويش •• أبدا •• أبدا ••

ـ هل تنام يابنى ..

رفع الصغير عينين شاحبتين ، بدأ متعجبا : أى سؤال هذا ؟ ما الذى يقوله هذا الشاويش ؟ انفلت يجرى مسرعا .

★★★

« تأشيرة على المذكرة الايضاحية رقم ١٠٦ م ، وعلى تقرير الشرطى صالح عبده ، وعلى عرائض مقدمة من بعض أهالى حارة الطبلاوى ، وشكاوى من مجهولين ، ونصوص مكالمات تليفونية ، لمواطنين رفضوا ذكر أسمائهم» .

« **يحفظ** ... »

منتصف
ليل
الغربة

اشارة تليفونية

من مديرية الصناعة الى مديرية الصحة

بناء على اشارتكم لنا بتاريخ اليوم ، بخصوص سرير خال بالاستراحة طرفكم ·

نرجو حجز مكان باسم السيد/يوسف عبد الرحمن الموظف المستجد طرفنا ·

مبلغ الاشارة

امضـــاء

تتراجع البيوت على مهــل : الدكاكين الصــغيرة ، والاعلانات ، وألواح الزجاج ، يصيح رجل مناديا على تاكسى بالنفر ، تنساب أغنية من بيت قريب ، يذيعونها دائما فى هذا الوقت ، وحدة الظهيرة ، تزيد من الحركة، يعود الناس من أعمالهم فى مدينته البعيدة الآن ، كان اذ يرى أباه يصيح : هيه .. بابا جه .. بابا جــه . لاتذكره الاغنية بأيام راحت .. بل تثير فى نفسه تراب الحزن الدفين ، ايام حلوة مزهرة مشرقة . جرى فوق رمال الشاطىء ، احتوى البحــر بعينيه ، وسامية بين ذراعيه ، أطعمته بيدها لحم السمك المشوى الأبيض ، مسحت عن شفتيه قطرات ماء البحر مالحة الطعم ، الآن يعض شفته ، وقع عجلات حنطوز رتيب ، الهواء حوله بارد ، قالوا له ان برد المدينة شديد ، خاصة اذا مانزل الليل ، قالت أمه : اذا شعرت ببرد ضع جريدة قديمة فوق صدرك ، ربما تقف الآن فى الشرفة ، تعرف أن يوسف لن يظهر عند منحنى الشارع ، أبوه لم يصل ، ربما جاءت أخته الآن ، كان يروح ويجىء بين الغرف ، يقرص اخته ، يسألها : هــل تعرض لها أحــد ؟ ياكل بسرعة ، يمد يده ، يداعب ذقن أمه ، تحكى له عمــا رأته عندما نزلت تشترى الســمك ، دارت .. بحثت حتى وجدت السمك الذى يحبه ، الأســواق مافيها الا

الشبار الصغير ، عند رجوعها قابلت السيدة أمينة ، كلمتها عن محمد الذى جاء وقرأ فاتحة ابنتها ، سعاد لم تتعلم ، ولها ثلاث آخوات كلهن بنات • أصولها ترضى بأول ابن حلال يجيء للبنت ، يصغى يوسف • فجأة ، يسأل أمه : الم تحضر بنت حلوة كالقمر ، وتسأل عنه؟ فترفع آمه يديها وتطلب من الله تعالى آن يعجل بهذا اليوم الذى ترى فيه عروس ابنها ، تجاوزت العربة آخر بيوت البلدة الخلاء يتسع ، النخيل يتشابك ، الحنطور يمضى متمهلا •

★★★

الأربعاء ٢٢ ديسمبر

هل خاف الأطباء على أنفسهم من العدوى فآثروا العزلة ، لكى أقطع المسافة حتى المدينة لابد أن أمشى نصف ساعة فى طريق مترب ، خال تماما من البيوت والعشش ، تماما ماتوقعته لحظة رؤيتى المبنى ، النوافذ مستطيلة وكبيرة جدا ، مغلقة ، وكأنها لاتفتح أبدا ، أما الشرفة فقد أحاطت الطابق الثانى كله ، محمولة على قوائم خشبية ترتكز على الأرض • لحظتها تذكرت بيوت مدينتى البعيدة • ذات الواجهات الخشبية ، آه من رائحة الغسيل المنشور فى الهواء وملح البحر • لو

أغمض عينىّ ، وأفتحهما ، وأجـد الطـرق والمتاجر النظيفة والنساء الجميلات ، والبحر • لم يمر يوم الا ورأيته ، في الليل أرهبه ، أخاف لو مشيت فأجد نفسى فوق مياهه • أمشى بعيدا عن السور ، ربما امتدت يد غليظة الأصابع ، وشـدتنى الى أعمـاقه ، ابتعد عن وشيش الأمواج ، العمق المحسـوس غـير المرئى ، بدا المبنى خربا عند عبورى حديقة الاستراحة الجرباء • تيقنت أن هناك من يرقبنى ، اقشـعر ظهرى ، طلعت السلم الذى يدور حول المبنى ، الدرجات الخشبية مغطاة بأوراق شجر جافة ، الصمت كالجبل كأن العالم خرب ، مدينتى البكر واسعة العينين لم توجد أبدا ، مع أننى فارقتها منذ ساعات •

فجـأة ظهر عبد المقصـود ، كنت متعبا • عيناى تكادان أن تنغلقا حـزنا وتعبا • انـه طـويل الجسم والعنق ، جامد الوجه ، ينظر دائما فى خط مستقيم • لم يرحب عبد المقصود بى ، نفس الجمود الذى قابلنى به الموظفون • لم أسـمع من يقـول : حمـد الله على السلامة • أنا أيضـا بادلتهم نظـرات الكره ، خاصة الشاب المتـأنق ، والعجـوز صـاحب الصـوت الملىء بالرغاوى • تبعت عم عبد المقصود وصداع أليم فى

قلبى ، لم أصدق أننى بعيد عن ساميه ، عن البحر ، وقد أسندت الحقيبة أمامى . وأطرقت مدة برأسى ، مغمض عينى .

«يوسف»

★★★

١ ـ الدكتور جلال محمود مرسى
من ١٢ ـ ٧ ـ ٦٨ حتى ١٣ ـ ٧ ـ ٦٨

٢ ـ محمد فوزى عبد السلام
من ٢٠ ـ ٨ ـ ٦٨ حتى ٢١ ـ ٨ ـ ٦٨

٣ ـ يوسف عبد الرحمن
من ١١ ـ ١٢ ـ ٦٨ حتى ......

★★★

ـ يعنى مفيش حد فى الاستراحة غيرى ياعم عبد المقصود ..

ـ أيوه ..

ـ لو نزلت البلد دلوقتى ورجعت متأخر مين يفتح لى ؟

ـ أنا دايما تلاقينى تحت . مابنزلش البلد غير قليل خالص .

ـ لكن السكة وحشة خالص ياعم عبد المقصود ··

ـ شوف يايوسف أفندى · المتــه دى طـول عمر خلا ماحــد هوب ناحيتها · والطـريق خطر ، وأولاد الحرام كتير ·

ـ يعنى الرجوع بالليل مش مأمون ·

ـ ده اذا جالك قلب وقدرت يايوسف أفندى ·

★★★

الأربعاء ٢٢ ديسمبر :

لا أعرف ما الذى يجرى لى لو لم أحضر كراستى والقلم · فى مدينتى انقطع عن الكتــابة بالشــهر · واليوم ألجأ اليها مرتين · فى العصر كسرت عادتى ولم أنــم ، البرد يشــتد ، لاأســتطيع القــراءة الا تحت البطــانية ، ثم ·· لو نزلت البــلدة ، مــع من أقضى ليلتى ؟ المقاهى قليلة وصــغيرة · فى بلدتى لو جلست على مقهى ، فى حى غير شــارعى · لنظروا الى بريبة فكيف هنا والناس يعرفون بعضهم ، قال أبى ان أهالى البلدة كالحريم ينتهون من عمالهم ، ويدخلون بيوتهم ، فلا يخرجون منها الا فى صباح اليوم التالى · قال أبى الله يبعدنى عن أولاد الحرام ، قلت وعيناى تدمعان

والجرس يرن رنته الأولى : سأقضى وقتى وأذاكر انجليزى ، وأقرا الكتب ، ونصحنى بأننى لو استطعت أن أجد شابا فى مثل سنى ، غريبا ، ونستأجر غرفة أو شقة . وكنت أعلم لماذا يقول أبى هذا ، حتى لايضحك على أحد ويوقعنى فى بنت قد تبعدنى عنه ، وتقطع ماقد أرسله الى العائلة ، وعلى العموم نساء البلدة كلهن لسن جميلات كفتيات مدينتى ، آه من الزحام والشمس الحلوة صباح الجمعة عند محطة الترام الرئيسية والهواء يهب مشبعا بزرقة البحر ، عند المحطة رأيت سامية لأول مرة ، بلوزة بيضاء ، جونلة برتقالية ، جورب أسود ، حذاء أبيض كبير ، عيناها فى لون ، أى لون .. عسل النحل ، رأيتها كمطر خفيف ينزل على مهل فى يوم حار ، أوراق زهر صغيرة تكسو الرصيف فى أيام مارس الأخيرة . نجم شاحب بعيد قصى له عينان واسعتان ، وأنف دقيق ، وشفتان كالفراولة ، قلت لن أجد مثلها . لو انى خلقت بنتا لتمنيت أن أكون مثلها . لفترة حاولت أن أقيم علاقات مع فتيات يسكن فى شارعنا ، لكننى ترددت ، وارتعشت قبل حديثى اليهن ، ونصحنى زملائى بالجرأة ، وهاهى . لو ضاعت ، هذا الشيء الخفى الذى لا أراه ولا أدركه ، لقضيت عمرى بعيدا عن جنس النساء ، حاذيتها وقلت

لهــا ان قلبي قد ارتجف عنــدما رآها ، وانني أشــعر
بصداقتها لى من زمن • توقفت ، نظرت الى وابتسامة
على وجههــا حيرتني ، قالت آه ومــاذا بعــد ، اصرار
عجيب انتابني • سألتها عن اسمها ، فى أى ســنة هى
قالت أولى ثانوى • ثم قالت انني ظريف ، وطيــب •
وفجأة كفت وطالبتي بالابتعاد ، قلت لها اسمي يوسف ،
وانني حاصــل على دبلوم تجارة متوســط وســاعمل
قريبــا ، وانني أنوى دخول امتحان الثــانوية العامة
فلابد من الالتحاق بالجــامعة ، وقلت يمكنننــا مذاكرة
الانجليزى سويا ، ضحكت وكررت انني طيب جــدا ،
وسألتها أهذا مدح أم ذم ، فطلبت مني برقة ألا اتقدم
معها أكثر من ذلك ، بيت خالتهــا يقترب ، قلت انني
انتظرها وأرجع معها حتى لو قضيت الليــل هنــاك ،
ابتسمت وقالت لاداعى • تابعتها حتى اختفت ، وكررت
فى ذهني عنوان المدرســة ، فجأة صحت بأعلى صوتي
انطلقت أجرى ، أجرع هــواء البــحر ، ألتهم الطريق
الليــن • وددت لو أوقف كل من يقــابلني لأقــول له
ماجرى ، ضــحكت وداعبت أمى كثــيرا حتى ظنت أنى
شــارب حاجه ، وقلت لها انك أعظم أم فى العــالم •
عنــدما قابلتها ليلة ســفرى ، دمعت عينيها ، قلت لها
ربما غبت عنك شــهورا ، قالت أســافر معك ضغطت

يدها ، الكازينو خال الا منا المصابيح الملونة تضىء فى انكســـار ، وبقــايا الأمطــار فى منخفض من أرض الحديقة وغناء من بعيــد ، قبلتهــا ، تخللت أصــابعى شـعرها الناعم كالليل . أقســمت لى بتربة أمها أنها سترسل كل ثلاثة أيام خطاب ، ســتقول كل شىء جرى لها ، وللمدينة ، وفى المدرسة ، اذا نزل المطــر ، اذا هاج البحر ، لو دخلت الســينما مع أبيهــا وزوجته ، فستحكى لى بالضبط مارأته من أفلام ، وعندما خرجنا كان للهواء طعم القرنفل ، المصابيح عالية . ضــوؤها مخنوق كصوتها لحظة الوداع ، لو أنها معى لانقلب كل شىء . عــدت أصغى الى أزيز الصــمت . تطلعت الى السقف المرتفع جدا . عندما سألت عبد المقصــود عن هذه المدفأة الرخامية . قال ان الانجليز كانوا يتدفأون بنارها . سألته هل حضر أيام الانجليز هنا ، قال انهم هم الذين بنوا الاستراحة لمهندس الرى ، وكنت واحدا من الذين وضعوا حجارة المبنى وأخشابه فوق أكتافهم ، ثم عينت فيــه . صــمت فجأة ، وبدا غير راغب فى الكلام . أسند الدورق وخرج . لاأعرف مايفعله فى هذه اللحظة ، كأنه لم ينم ، انمــا يطــل على من ثقب البــاب ، ارتعش دمى ، نفضت مايتــدافع الى ذهنى ،

تأملت الكتب محاولا اختيار رواية أقتل بها مابقى من وقت ..

«يوسف»

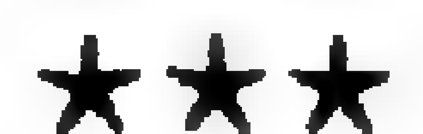
★★★

تمسك يده بحافة النافذة ، يمرق شريط الضوء اللامع يكشف العربات التى بدت مستطيلا واحدا ، مرور العجل فوق فواصل القضبان ، قطار الثانية عشرة قادم من الشلال الى القاهرة ، مفتخر لايقف أبدا، يوسف يتابع الرجال النائمين على المقاعد الزرقاء فى العربات ، آخرون يشربون الشاى ، يأكلون الجاتوه فى عربة الأكل ، يبدو عليهم ملل ، الرحلة طويلة ، لو يركبه يوسف ، بعد ساعات يقف فى القاهرة ، ثم قطار آخر ينقله الى البحر ، لكم يبدو بعيدا وبطيئا هذا الوقت الذى سيمضى عليه هنا ، حتى يحصل على اجازة ويسافر . يسيل الضوء ناعما فى الخارج . أضواء المدينة البعيدة خافتة تزيدها بعدا . فجأة ينتبه الى وجود رجال فوق القنطرة الحجرية ، هل عبد المقصود بينهم ؟ لايرى الملامح ، أياديهم طويلة تلمس ماء الترعة . لايجرؤ على اغماض عينيه ، لو يأتى بأقل حركة ربما تنبهوا اليه ، تنبعث من بعيد أصوات

مجهولة لم يميز منها الا مايشبه اطلاق النار · هل له صلة بعمل الرجال · لايعرف من آى جهة يجيئون ؟ يظهرون فجأة ، ربما يخرجون من الاستراحة ، فجأة · يضيع كل مايراه ، يتبخر الضوء الناعم ، تضيع معالم الحجرة ، تحته فراغ وفوقه ، هل أصيب بالعمى المفاجىء ؟ هل يحيط به غرباء أقزام ؟ عمالقة ؟ لن يطلع عليهم النهار · هنالك ، لن يعيش اللحظة التى تلى هذه ، لن يدرى أحد ، لن يحميه عبد المقصود ، يتحرك مشلولا ناحية السرير ، تتقلص أصابعه ممسكة بالبطانية ، ينتزعها بعنف ، ويلفها حول جسمه ، يصطدم اصبع قدمه بالمقعد المدبب الحواف ، لو قطعوا لسانه اللحظة لما شعر بالألم ، يسند ظهره الى الباب · وحيد تماما · نواة ملقاة فى فراغ حتى من النجوم ، والأرض ، وذرات الزمل ، وسامية ، وحراشيف النخيل ·

★★★

ـ صباح النور · لا والله ماسمعتش · أصل النور بيطفى بعد الساعة اتناشر · وابور البلد بيقف ·



الخميس ٢٣ ـ ١٢ :

طلبني المدير ، سألني عن مجموعي في الدبلوم ، وسرعتي في الآلة الكاتبة وأعطاني ثلاثة خطابات ، طلب مني أن أنسخها ، شعره يلمع وأسنانه بيضاء يتكلم برقة ، يتناول بين لحظة وأخرى قلمه الحبر الطويل المغموس في محبرة نحاسية ، ليؤشر به كلمة واحدة فقط ، كدت أقول له ان الاستراحة مزعجة ، وانني لن أرجع الليلة اليها ، غير أني ترددت ، ماهي مبرراتي ؟ خرجت من عنده ، وفوجئت بزملائي ينتظرون خروجي ، سألوني عما قاله سيادته ؟ قلت : لا شيء . سكتوا ، نظروا الى بعداء . جاء رئيسي الشاب ، أعطاني عشر استمارات صرف لأراجعها . نظر الى الدوسيهات الكثيرة أمامي . قال لابأس اذا كان العمل كثيرا عليك ، لكن هذا لابد منه حتى تتمرن . قلت أبدا . فجأة سألني عما قال المدير ، قلت : لاشيء . وفعلا لم أر في كلامه مايستحق أن أكرره ، غير أنه اعتدل واقفا ، نظر الى بعداء لم يخفه . كنت مجهدا ، وعيناي مليئتان بالصابون الحارق ، وعندي ميل الى القيء . تخز قلبي صورة سامية . بعد فترة جاء ، وأشار الى حقيبتي الصغيرة ، قلت له عما بها ، كراستي ، ورواية لم

أتمها ، وثلاثة مظاريف خطابات ، ومحفظة نقودى ،
لأنى لاأحمل نقـودى فى جيبى • قال على مسـمع من
الآخرين ، انه لا مجال لقـراءة الروايات هنـا ، وان
العمل جاد ، وانه هـو نفسـه لايحب آن يحضر أحـد
موظفيه روايات آثناء تأدية العمل الرسـمى • عنـد
الساعة الثانية وقمت أمام اسمى ، وفجأة ، جاء الساعى
العجوز ، وطلب آن أكلم المدير ، تلفت حولى غير آننى
لم أهتم بنظـراتهم ، ودخلت الى سـيادته ، ابتسم ،
ولاحظت بدهشة آنه قصير القامة ، بعكس مايبدو آثناء
جلوسه ، قال : لعل العمل لايكون ثقيـلا على نفسى •
ارتحت • فارقتنى الرغبـة فى النوم • كأنهـا لحظـة
رؤيتى سامية قادمة من ناحية البحر ، قلت : آبدا ان
العمل لايرهقنى ، قلت فى نفسى : بعد دقيقة أكلمه
عن الاستراحة ، كدت آقول له : آشعر بأننى آتكلم أول
مرة مع انسان منذ وصـولى ، قال : هـل تعرف أحـد
الموظفين هنا ؟ قلت : أبدا • سكت لحظة ، وقال : أنا
هنا مثلك ، وربما آنت آعزب • آنا عندى أسرة مقيمة
هنا • وللأسف هؤلاء الموظفون لايكفون عن الحديث عنى •
سكت ثم تابع : طبعا هذا شىء مزعج • ولكن لو عرف
مايقولونه بالضبط سيصبح الأمر غير ذى أهمية ، كل
ماعلى أن آسمع مايقولونه فقط ، وآنقله بالحرف الواحد

لا أزيد ولا أنقص ، وبهذه المناسبة · هل تكلموا في موضوع يخصني اليوم · قلت : لا أذكر ، لوح بيده ، وبدا وجهه غير مهتم ، وطلب مني أن أنتبه من الآن ، خرجت والرغبة في النوم تعاودني ، ذهبت الى المحطة ، جلست فوق رصيف المسافرين ، ثلاث بنات تلميذات ، وقفن بعيدا عني · ينتظرن أوتوبيس الديزل الصغير الذى يصل المدينة بالقرى الصغيرة ، القريبة ، لم أنظر اليهن ، أين هن من سامية ؟ بل أين البحر ، الطرق اللامعة المتعطشة الى ماء المطر ، الأشرعة البعيدة كجناحي طائر محدودب ، أين البهجة في وعائي عسل النحل المصفى ؟ تضحك ، تتقدمني الى الترام ، ننزل آخر الخط ، نمشي بجوار البحر الذى يتنفس بقوة ، فجأة نجرى . نجلس في نهاية اللسان الحجرى ، أسند رأسي الى فخذيها ، أحيطها بذراعي ، ربما رآنا أحد ، لكنني أقطف ثمار الفراولة ، والكمثرى ، وأشرب عصير المشمش ، اذ تهدأ تأوهاتها ، نتحدث عن آمال نرجو أن تتحقق ، ليس من المعقول أن نقضي حياتنا في هذه المدينة ، ياسامية ، بعد زواجنا سنرحل الى السودان ، الى أريتريا ، الى بيروت ، الى أوروبا ، نطوف المدن البعيدة معا ، نجلس على المقاهي تحت سفوح الجبال ، نخرج قلما وورقة ، نكتب تكاليف الرحلة الأولى · نثير

بعض الاعتراضات ، غير أننا نتغلب عليها ، ها ٠٠ ربما تفكر سامية فيما قلناه الآن ؟ هل يعرف هؤلاء الموظفون أى مشاريع صغيرة رسمناها معا ؟ هل يدرى المدير بأحلامنا ؟ كأن دنياهم تتوقف على معرفة ماقالوه أو ماقاله؟ يثور بى الخاطر أن أركب أول قطار الى مدينتى ، الى سامية ، وأسند رأسى على صدرها وأبكى، أبكى بلا دموع ٠ قمت حاملا حقيبتى الصغيرة ، الرصيف خلا من الركاب ، والفتيات رحلن الى قراهن البعيدة ، وسامية خرجت من المدرسة الآن ٠

«يوسف»

★★★

ـ أنت فاكر كلمتك فى ايه ياعم عبد المقصود ، ايه رأيك تبات معايا ٠ اديك شلن كل ليلة ٠ السريرين واحد ليه ٠ وواحد ليك ٠ كل ليلة شلن ٠ آه والنبى ٠ أحسن الأوده واسعة والبيت فاضى ، والحتة كده شكلها يخوف ٠

★★★

لو معه راديو لسمع الأصوات المنبعثة من العالم ، هنا بيروت ، هنا لندن ، اذاعة الجمهورية العراقية من بغداد ، محطة الاذاعة العربية من موسكو ، عدن ،

الجزائر ، تختلط الأصوات ، تضيع النداءات . حنين حاد يتحرك في دمه ، أو يسمع أغنية من قرب ، أصــوات الرجال ستبدأ بعد قليل فوق القنطرة • منــذ ســاعتين دخل عبد المقصود • تلفت حوله ، عيناه فحصتا كل مافى الحجــرة ، كأنه يدخلها أول مــرة ، ثيابه المعلقة فوق المشــجب ، الحقيبــة التى مازالت مفتوحة ، الحــذاء ، الجورب ، الفــوطة الملونة بخطوط ســوداء ، المشط ، سأله عما يفعله بالكتب ، سكت •• ثم سأله عن سنه ، فقال يوسف : تسعة عشر عاما • قال انه صغير • تمدد ملتحفا بالبطانية ، أنهى الحديث فجأة ، لايدرى يوسف ما الذى يفعــله الآن ، يطفىء النــــور أم يبقيــه ، عبد المقصود لم يطلب اطفاءه ، لايعرف هل رجعوا الى القنطرة ، لكن ربما يطردهم عبد المقصود • يظن أن يوسف يرصــد حــركاتهم فيناله ضرر • قرض يوسف شفتيه ، برغم أن مظهره ينم عن نــوم عميق ، غير ان احساسا خفيا يقول ليوسف : عبد المقصود لم ينم ، لو نظر الى عينيه من الناحية الأخرى ، لرآهما مفتوحتين • خفت الضوء ، بعد قليل ينقطع ، منذ لحظات خــرجت حفلات السينما الأخيرة ، اربع مرات دخلها مع سامية • تقول لزوجة أبيها انها ســتذاكر مع صاحبتها ، تاهت

نظراته على السقف ، وهو لايعرف ما الذى تفعله سامية الآن ٠

السبت ١٢/٢٥ :

أرعبنى الليلة عبد المقصود ، ظل ساعة كاملة ينظر الى ، متجمدا كالحجر ٠ قطع ماكنت أود أن أسأله عنه ٠ حياته ، نزلاء الاستراحة ، وحدته ٠ وفى الهواء تصاعدت رائحة عرق لم أشمها فيه من قبل ، بالرغم أنه تمدد من ساعة موليا وجهه الى الحائط ٠ فهو يرقبنى الآن ٠ أذناه تسمعان حركاتى ، تحصيان دقات قلبى ، أنا تعب ، خطابات سامية لم تصلنى بعد ٠ كل يوم يوم أسأل مدير البوستة قبلى البلدة ، أنا حزين ، وأكاد أبكى ، لاأعرف لماذا يبدو عبدالمقصود غامضا، ولا أعرف لماذا يبدو عبد المقصود هكذا ٠

«يوسف»

★★★

الساعة الثانية صباحا تقريبا ٠ أقصى عمق لظلام الليل ، يوسف لم ينم ، حتى قطار الثانية عشرة لم يمر، يصر السرير فجاة ، يكف الهواء عن دخول رئتيه ، حفيف جلباب عبد المقصود لم يعد متمددا فوق السرير ٠

ما الذى ينويه ؟ هل صمته ، اخفاء حركاته ، يخفى أمرا ، ينزل يشارك الرجال فوق القنطرة ، لايتجه الى الباب ، يقترب منه ، لحظات الكابوس • صراخه المكتوم من الأنف ، وشلل الجسم ، وصياح أبيه • اصحى •• اصحى ـ ولو ، فمن يهرع اليه هنا •• من يهز جسمه حتى يفيق ؟ من •• من ، يصر السرير ، ليس كابوسا، عرق عبد المقصود يملأ أنفه ، عبد المقصود يلامس جسمه ، يده الغليظة الخشنة تسد فمه ، أنفاسه ساخنة لزجة تقشعر ماوراء أذنيه ثقل جسمه ، اليد الأخرى تمتد الى بنطلون بيجامته ، الحجرة تغرق فى زيت لزج، لو يصرخ •• لكن من يجيب لو يزعق ؟

★★★

« كنت تقول لى ، انك لو نظرت الى وجهى لشعرت بحزن لايحز فى قلبك ، انما يشحن نفسك بمـا لاتدريه أنت ، وسألتك كيف تحزن اذ تنظر فى وجهى ؟ قلت انك حائر، وهنا فى الغروب كل ليلة أذهب الى صاحبتى سعاد أذاكر معهـا ، وأرى وجهك أكثر من مـرة فى الطريق •• عند منحنيات الشوارع ، أمام محلات عصير الفواكه ، آتذكر مشروعاتنا للسـفر، وآتخيل نفسى أننى سافرت وحـدى ، الى بلدة صـغيرة عند حـدود

العالم ، شوارعها مبلطة ، وكنيستها قديمة ، أجلس فى مطعم له شرفة خشبية ، وفجأة أراك تعبر الطـريق ، ولاأكون متوقعة رؤيتك ، فاقفز من مكانى ، أناديك ، تدهش أنت اذ من يناديك بالعربية فى هـذا المكان ؟ تفتح ذراعيك ، تدور فى الهـواء . أسـألك ما الذى جاء بك ، وتسألنى ما الذى جاء بى ؟ ولاتسعنا الفرحة فنتمنى لو تحولنا الى طائرين صغيرين ، وطرنا الى أعلى الجبال المغطاة بالثلوج .. آه .. هل تذكر عندما كنت أتقدمك فى نزول سلم السـينما الطـويل الحـديدى المفروش بسجاد أحمر ، كنت تقـول لى .. أنت الآن تنزلين سلم البوينج ، ونخرج الى الشارع ، تقول اننا اجتزنا الجمارك ، فلاشىء معنا نحاسب عليه ، ثم تشرح ثم تشرح كل ماتراه ..

يوسف

فى اليوم الواحـد أفكر فيك يومين . هـل تذكر الجمبرى ؟ هذا الطريق الطويل المفـروش بالظـلال . ساعات يخيل الى آن المدينة خراب بدونك ، لم أعرف قسوة الفراق الا لحظة موت أمى ، ورحيلك أنت ، سأكتب لك كل ثلاثة أيام ، ربما كل يومين ، وربما كل يوم . واذا ماكتبت لى ، فلاتكتب أقـل من أربـع صـفحات

فولسكاب . لابد أن أعرف كل كبيرة وصغيرة عنك ·
أكلك . نومك . شربك . أصحابك : وقتك ، كل شيء
حتى أهدأ . حتى أستريح ، وأخبرني متى ستحضر ·

المخلصة لك

سامية

★★★

الأحد ١٢/٢٦ :

أكلت في المطعم الوحيد ، سألت الرجل عن مسكن خال حتى لو كان جحرا · فقال ان مأمور المركز كان أولى ، وانه لايستطيع احضار عائلته لأنه لايجد مسكنا، ونصحني ألا أتعب نفسي ،فأهالى البلد لايقبلون عزابا· في العصر خنقتني الغيوم ، همت على وجهي لاأجرؤ على إخراج خطاب سامية ، منذ جئت أنتظره . عندما قرأت خطها الرقيق خجلت من سطورها ، وبكيت · وحقدت على لون الضوء المتسلل في الفراغ ، والنوافذ الكبيرة المغلقة ، والرجال الذين يحملون أكياس الفاكهة الى عيالهم · أغرقني النهر حزنا كالنحاس الأزرق ، واذ رأيت بنات المدرسة الثانوية ، وثيابهن الرمادية ، تذكرت سامية ، وارتعشت ، كأنها تنظر الى من مكان لا أراه ، بعيدة عني ، لكنها تلمحني من مكان خفي ،

وجهها فى الفراغ • آينما رحت ينظر الى برثاء ، كدت أرمى نفسى فى النهر • كدت آضرب المدير القصير عندما طلب منى فى حدة آن آنقل اليه مايقال عنه حرفيا ، وآن آعتبر هذا آمرا ، بدا لى آنه يعرف تماما ماجرى ، وآنه على صلة خفية بعبد المقصود • أما الموظفون فنظروا الى بسخرية من وراء الدوسيهات ، طلب لى آحدهم شايا ، ولم آدر سبب الود المفاجىء ، كدت آرفضه ، وفى كل رشفة شعرت بنظراته • هاآنا أسقيك شايا • آنا لست آقل شآنا من عبد المقصود طبعا، آخر النهار سألت عم محمد عن مكان خال ، فقال : هذا مستحيل ، حتى الباعة ، خادم المقهى ، هزوا رؤوسهم ، كلهم يعرفون ، حتى الرجال المحملقون الى من فوق مقاعد المقاهى ؟ المتجهون الى المحطة ليركبوا القطار • كلهم يعرفون ، مهدوا لما جرى ، لو آعود الآن الى مدينتى ، يعرفون فورا • قلت فلأنم الليل على رصيف المحطة ، آتأمل القطارات التى تجىء ، ولاتقف •• شربت شايا ، امتدت مخالب طيور صغيرة تنهش كبدى ، تزول السواد يمنعنى من العودة الى الاستراحة ، مقدمات المغيب كالطاعون ، تطردنى البيوت الى الخلاء المؤدى الى غابة النخيل •

يوسف

★★★

« .. أنا عــارف كويس انك دورت على لوكاند
طول اليوم . وكمان فكرت انك تسافر ، ولما يئس
فكرت انك تنام على رصيف المحطة ، لكن البوليس لاز
يمسكك . أنا عارف انك مش حتلاقى . حتى لو لقيت
فمش ممكن تسيب الاســتراحة برضه . انت هنــا
عندى . أنا مش مخليك تحتاج حاجة أبدا . بس تقو
لى على كل اللى انت بتعمله . تقــرالى الجــوابات ا
بتبعتها لأبوك وأمك .. وأصحابك . اذا دخلت فى
تحكيه لى . أنا من سنين مادخلتش سينما . وبعد
الكتب الكثيرة اللى انت جايبها معاك دى . فيها ايه
أنا يايوسف من أربعين سنة هنا . عايش على أمل ا
واحد زيك ييجى . يمكن اليوم اللى انت اتولدت
أنا كنت باتمنى الامنية دى . أنا وانت من هنا ورا
حته واحدة . الاســتراحة كلها تحت أمــرك حتى
انتهت مدتك الرسمية . حتفضل معايا ، أنا هنا الـ
فى الكل . ياما قضيت سنين مادخل على أحد غير الصرا
ييجى يسلم لى الماهية . شوف . حتى المديرية ماعر
طريقها فين . هما اللى يعرفوا طريقى .. »

★★★

« .. أقول كل شىء ولا أقوله ، الآن لم يبق لى
أنت ، خطابى اليك ياحبيبى . هو الشىء الوحيد الذ

أكتبه على رصيف المحطة ، ومن يدريني ربما فتحوه ، وأخــذوه ليعرفوا ماقلته لك ، أما خطابات أمي وأبي وأصحابي فأنا مطالب بتلاوتها أمام شيء لن أقول لك ماهو ، انما .. انه قــوة لابد أنا مــلاقي حتفي على يديها ، الناس هنا ياسامية غير الناس ، والعيون غير العيون ، الحياة غير الحياة ، كدت أبكي عندما أدركت في لحظة بعينها أنني لم أفكر فيك يوما كاملاً ، ملامحك بدت لى باهتة ، أنا لا أكــذب عليك ، بل أصـــارحك تماما ، كدت أجرى لاطلما وجهي ، صرعني الحنين اليك حتى لو أرسلت صورتك الى فلن أستطيع الاحتفاظ بها . ولا تعليقها في مكان ظاهر ، هذا الشيء لو رأى رسمك، أخاف عليه منه ، ربما تعقبك ، ربما ذهب اليك في مدينتنا . ربما قضى عليك كما يقضى على ..»

***

ـ يوسف .. هات فلوس عشان الغدا . اسمع . هات اللى معاك كله . انت الفلوس حتعمل بهــا ايه ، ماتخليش معــاك غير المصروف ، وده خــده مني كل يوم .



الاثنين ١٧ يناير :

منذ مدة لم تصلنى خطابات من سامية ، حيرها ردى ، الآن آخاف عليها • حتى لو عدت الى المدينة ، حتى لو نقلت ، حتى لو رجعت ورأيت البحر كل يوم ، هل يعود ماكان بيننا ؟• هل نجرى بنفس الحيوية ، نضحك ، نأمل ، نتبادل القبلات ؟

★★★

الأربعاء ١٩ يناير :

صباح اليوم طلبت المصروف من عبد المقصود ، أخرج محفظته الكبيرة • قال ان الدنيا برد ، وقال انني صرخت مرتين أثناء نومى وأيقظنى ، كان يقف على بعد متر منى ، عيناه ثبت السواد فيهما ، فى الخارج علا ضجيج قطار ، تقدم منى ، وأمسك عنقى • يده دافئة، أنفاسه مشبعة برائحة الدخان ، لم أتحرك ، قيدت مكانى بآلاف القيود ، أحاطنى بذراعه ، قال انه لم يكف طول الليل عن الحلم بحسنية التى تمنى زواجها من عشرين سنة ، ولم يقبل أهلها ، قال انه لن يدعنى أذهب الى المصلحة ، سحبنى الى الحجرة مرة ثانية ، وكانت الشمس ضعيفة عاجزة • وكان يرتجف وريقه

يسيل ، لايمى . ما الذى يقولونه اذا لم أذهب .
وهمس انه اليوم سيطبخ حماما محشوا بالفريك ،
وعلا ضجيج قطار .

★★★

يروح المدير فى الحجرة ويجىء ، يداه معقودتان وراء ظهره ، يثنى شفته السفلى ، يمضها ينفخ الهواء ساخنا من فمه ، يستدير الى يوسف كأنه يود لو يسأل : هل هذا صحيح ، محروس أفندى قال عنه هذا ، كأنه لايصدق . لكنه يثق بكل مايقوله يوسف الآن ، بعد عدة أيام من نقله كل كبيرة وصغيرة الى سيادته ، شد على يده ، تأكد له صحة مايقوله يوسف ، كيف . يوسف لم يعرف ، ربما يتولى أحدهم نقل الأخبار اليه ، ثم يقارن مايصل اليه ، يدور المدير فجأة ، يقسم أن ينقل محروس أفندى الى قرى الضفة الشرقية من النهر . يخرج يوسف ، يطلب قهوة ، لايبالى نظراتهم ، يطل على الميدان الصغير من النافذة المجاورة له ، حقا .. أى جرأة فى تبليغ النبأ الى سيادته ، لكن هذا ماسمعه فعلا من محروس أفندى ، البك المدير لايملأ عين امرأته ، لكن هل رآها واحد منكم . هل رأى الجوع المطل من عينيها ؟

★★★

•• حتى اننى أرجو أن تعذرنى ، ذهبت بالخطاب الى صاحبتى سعاد ، فهى تعرف كل شىء بيننا ، لكنها لم تفهم لم تعرف ، قالت ربما حبيبك فى ورطة ، لكن الخطاب به ماهو أشنع من ذلك • ماذا جرى ياحبيبى ، هل يهددك شخص ما ؟ هل اختطفتك عصابة ؟ هل أذاك المدير؟ ماذا جرى ؟ أين خطط مستقبلنا ؟ أين ماتواعدنا عليه ؟

★★★

فى الصباح ، أعطاه المصروف وهو متمدد كالقتيل، فمنذ أربع ليال يرقد من الغروب حتى خروج يوسف لايتحرك ، آخر الليل بدا متوحشا فاقد الوعى ، آلمه حتى صرخ ، بالأمس كاد يوقظه ليبادله الحديث ، فالوحشة شديدة ، ولم يعد يقتل الوقت فى القراءة ، كوم عبد المقصود كل الكتب فى الحجرة الأخرى ، لأنها كما يقول تشغل يوسف عنه ، أطل يوسف من النافذة غير أنه لم يجد الرجال الذين يجيئون الى القنطرة ، هاهو يعبر الطريق الخالى الى المقهى ، يقول الخادم ان البلدة لم تر بردا كهذا ، منذ لحظات توسط الميدان الكبير • تعب فجأة • البيوت حوله ، صامتة ، كالجثة •• كأن الحجارة لها عيون وآذان ، انه وحيد حتى النخاع

واليافوخ ، لا وقع أقدام يسمع فى المدينة الا له ،
جرى فى الميدان ، الأهالى ينظرون من وراء شيش
النوافذ الماثل فى اتجاه الطريق ٠٠ كاد يصرخ ، مطالبا
أى أحد ، أن ينتزعه من هذه الشوارع ، تلك البيوت ،
المقهى حوله خال ، كل ماجرى يبدو له وكأنه يجرى
أول مرة ، خطاب سامية الحزين مدفون الآن فى درج
مكتبه ، الشيء الوحيد الذى أخفاه ، من يدريه ، ربما
يعرف عبد المقصود كل شيء ، فمنذ ليال ساله بالحاح عن
علاقته مع النساء ، يوسف يتساءل بمرارة ، لماذا يخفى
عنه الخطاب ؟ لو تجيء سامية الآن ، لا آمال تبنى ،
لا حديث خافت مهموس يدغدغ ماوراء الأذن ،
لا قبلات ، لن يطبق البحر على جسميهما كالخيمة اذ
يغوصان فيه حتى العنق ، لن يقفا أمام فتارين
الأثاث ، هذا الركن يصلح فى الانتريه ٠ يوسف ٠٠
الصالون لابد أن يكون مودرن ، كأنه يدرك ضياعها
أول مرة ٠٠ الآن سامية غريبة ٠ أمه ، أبوه ، كل أيامه
البعيدة فى مدينته المغسولة بماء البحر ، عض راحة
يده ٠٠ يخاف أن يرى سامية فجأة ، ستعرف كل شيء ٠
تهرب ٠ تجرى ، فربما أخذها من يدها ، وذهب بها
اليه ٠ فعلا ٠ ضاع كل شيء ٠

يوسف يقوم واقفا ، الابر المدببة تنفذ الى كليتيه، على الناصية ، دكان لبيع أدوات الحلاقة زجاجات العطر ، الأمواس أنواع ، المقابض الحمراء ، السوداء ، الزجاج متسخ ، أصابع قدميه تتوتر داخل حذائه ، تتشابك يداه ، ربما رآه عبد المقصود ، يسأله لماذا يحملها ؟ يعرف بسرعة ، ربما يرقبه الآن ، ربما صاحب المحل يعرفه ، يضربه عبد المقصود • يمزقه ، يرميه في الترعة ، لن يدرى آحد ، الحيرة تشطره ، يزداد الضوء قتامة ، والبرد ينفذ الى رئتيه ، غمامة كبيرة تزحف فوق البيوت ، يرفع عينيه ، تحتوى وجها مشوه الملامح ، جاحظ العينين ، كاد يعرف صاحبه ، لولا أن الريح أزاحتها بسرعة ، يخرج صاحب المحل فجأة • يقول وعيناه محملقتان الى السماء : المطر لاينزل هنا أبدا •

ناطق
الزمان

مفتتح

فى آخر الزمان ، يقـوم المهـدى المنتظر ، ناطق الزمان ، يجىء الى الدنيا بعد أن يبلغ أمرها حدا لا حد بعده ، انه يعيش فيها ، لكنه خفى لايبين ، وفى يوم معين ، لحظة بعينها ، قيل انها ساعة شروق الشمس ، يظهر ، فيراه أولا الصفوة ، ثم يعم . عندئذ ، يقوم جنده من كل مكان ، من فجاج الأرض ودروبها يجيئون ، آمنين ، موحدين ، فيملك الدنيا شرقها وغربها . كمـا ملكها سليمان الحكيم ، وذو القرنين ، قال الثقاة انه لو

ظهر ثم اختفى ، وبقى فى عمر الدنيا يوم واحد ، لأطال الله عمر ذلك اليوم حتى يبعثه رب العالمين ، حينئذ تمتلىء آخر أيام الدنيا عدلا وسلاما ، من بعد أن ملئت ظلما وجورا •

جمع الكلمات

هدأ القطار سرعته ، انزلق سامى من فوق السطح الى فراغ مابين العربات ، قفز الى الأرض ، الهواء بارد ، يقول ان الشتاء بانتظاره ، باع كل شىء من أجله ثم فارقه • سامى نهار هجره الضوء • فى الميدان حركة ليالى الشتاء ، أصدقاء يفترقون ، جنود عابرون، مواصلات تشح فتنقطع أوصال المدينة ، عليه أن ينتظر ، يبحث عن مولاه من جديد ، سيجمع الحروف يضاهى الأرقام ، ينبش ضفتى النيل بابرة ، وحتما يلاقيه كما قابله ، سامى الآن وحيد حتى مرارته ، بلا بطاقة شخصية • نزع كل أوراقه ، ربما أذاقوه العزلة ، سجنوه ، وأين مخلصه لينقذه ؟ أين ناطق الزمان ، من يجمع كلماته ليوصلها اليه ؟ سيختفى فى الزحام ، يمضى الى أضرحة الأولياء ، بعينيه يسأل الناس عنه ، بارهاف أذنيه ، بالذكرى المتبقية ، يزور أمه ، يرثيها ، ينثر القرنفل الحزين فوق قبرها ،

يطلب منها أن تساعده ، يسألها كيف تجلى له ؟ رافقه، أضاع ماأضاع من أجله ، ثم غادره •• كيف ؟

أول الرؤية

سامى لم يفه بحرف ، بالدموع كاد يبكى ، عاش اللحظة الأولى ، رعشة الميلاد ، خروجه اليومى الصباحى ، السماء زجاجية اللون ، سور باب النصر ، عربات نقل الرمال ، رآه قادما من ناحية جبل الدراسة، قرص الشمس يلمس حافة الصحراء ، كل شيء أعد ، ليس صدفة أبدا ، رآه فى خفقات النهار الأولى ، فى اندفاق اللبن من اناء الى اناء ، سامى يعرفه ، هذا ماقرأ عنه ، قال مقتربا منه :

ـ أنت أنت ••

فى الطريق يخطو الصباح طفلا واسع العينين ، رقائق هواء •

ـ لن تفارقنى ياسامى ، مادمت عرفتنى ، فلا يحدث هذا كثيرا فى الزمان •

أتركنى فى غرفتك •• أمض انت الى رزقك فأنا لست محدودا بمكان •

« يبدأ ميلاد سامى ، فكر فى اللهجة التى يواجه

بها صاحب المتجر ، هل يتحدث اليه بأنفه وكبرياء ؟ أو بلا مبالاة ؟ كتم مافى نفسه ، لم يبح ، ستجىء لحظة معينة ، يدرك فيها صاحب المتجر ، وزملاؤه البائعون، والزبائن ، ماأدركه هو ، يعلمون أن سامى أول من اتبع خطى ناطق الزمان • فى المساء عبر كوبرى الجلاء ، تماوده لحظات قديمة ، تدفق دما ساخنا طريا ، عودته الى البيت ، يعرف أن أمه بانتظاره ، أبوه سيصل بعد قليل ، خروجه لمقابلة هدى ، حركة يدها ، لون نظرتها ، رقة وجهها ، مشروعاتهما المشتركة ، تخيلهما شكل البيت الصغير المنتظر ، وقوفه أمام الهدايا ، يتمنى لو اشترى لها ، هذا القماش ، تلك الحقيبة ، يسرع الخطى ، يقابلها ، تضحك فرحة ، آه من حيرته فى ليل المدينة ، البيوت قضبان سجن ، أين يذهب ؟؟ يود لو يوقف أى رجل مار ، فقط يتحدث اليه • فترة مابين السابعة عشر وعامه العشرين ، بسرعة مرت ، لم يعشها ، أين راحت ؟ كيف ؟؟ كأنها ستعود من جديد ، فيض الآمال ، اعداد المشاريع ، لحظات ماقبل النوم ، الآن •• يعرف أن أيامه العطشى كأرض جفاها النيل ، ستنبض من جديد ، بكل ماراح ، ماضاع ، صوامع الغلال الفارغة المنخورة تمتلىء من جديد ، يشم رائحة التين فى الطريق الضيق المحفوف ، بمجرى

النيل في قريته النائية ، يمشي مع أبيه . سامي لم يزر بلدته منذ سنين ، بعد اليوم ، لن تعصاه كلمة «لو» في ميدان التحرير ، أمام محل يبيع الألبان ، تتصدره زجاجة لبن كبيرة ، آلة عصير مانجو ، مناضد ، همس شفاه ، قاوم نفسه ، آه لوصرخ ، يطلع فوق برج القاهرة ، يدور بهليوكبتر ، يشق فراغ مابين الأهرامات ، يعبر الكبارى الصغيرة المصنوعة من أخشاب النخيل ، يطوى مدقات الجبال ، يزعق .. أبشروا .. ظهر قائم الزمان .. ناطق الزمان .. جاء العدل والسلام .. .

★★★

يطل من عينيه أمان ، آه ياآب اليتيم ، ياعائل الشريد ، يامنجى الغرقى ، نطق فارتجف سامي :

ـ أحسنت .. لكل لحظة آوانها المحتوم ..

بينهما صمت شفاف نقي كماء الورد ، أصوات العصر تجيء من الحارة ، يسمعها سامي أيام عطلته بمفرده ، ثرثرة النساء ، نداءات الباعة ، يتأمل ايقاع أصواتهم وتنوعها ، «ياخس ياحلو قوى» . «أصلح بوابير الجاز» . «الوداع ياملوخية» . أوان بعيدة تسقط ، موقد يشتعل ، صفارة نائية ، مجهولة المصدر .

رفع عينيه ، وجه ناطـق الزمان ، لايمكن من خـلاله تحديد العمر ، ربما قال ناظر ، انه مليح ، شاب ، ربما أكد مجرب حكيم ، أنها ملامح شـيخ جاوز الثمانين ، محير ، متى مولده ؟؟ هل لمثله أم عانت آلام المخاض ؟؟

ـ طالت رحلتى .. غداً يأتى طوال السنين ؟؟

الليـلة ، يتم سـامى عامه الثلاثين ، من منتصف الليلة ، ينحدر العمر ، أيام رمضان الأخيرة تقول أمه ؛ مانضـومه لن يتكرر ، أيام شبابه أيضاً ذابت ، قال ناطق الزمان انه سينزل الى العالم . خفى . واضح ظاهر . باطن . سيعرفه المقربون . بصيته يزعقون ، الأمر فى هذا الزمان صعب ، عسير ، منذ مئات السنين انتقل بين القرى وأسـواق المدن ، عبر جبال الثلوج البعيـدة ، الطرق الصحراوية المؤدية الى الواحـات ، بعضها لاوجود له الآن ، لم يطلب منه أحـد تصـاريح سفر ، واذا استبد الفضول بمخلوق فهو طواف لايهدأ له قرار .

ـ أمـا الآن .. فالحـذار .. الحـذار .. كثر الأعداء ..

سـامى الآن يشـم رائحة أبيه ، عودته كل ظهيرة بأقراص الطعمية الساخنة ، أمه تقعد أمام باب الحجرة،

ترتق قطع القماش القديم ، تصـلها ببعضها ، بثـأن تحاول ادخال الخيط فى ثقب الأبرة ، سامى يشد ثوبها، تقول : اسكت ياسامى • اسكت ياحبيبى • قال ناطق الزمان ، ان الاعداء لاينتهون ، منذ أن طاردوه زمن الخلفاء الأمويين ، ثم العباسيين ، اضطر الى الاستتار فى بلدة صغيرة ، رقيقة ، كقصيدة شعر ، نائية فى الشام ، اســمها سلمية ، منها انطلق دعاته ، غير أن الخـلاف دب بين الأتباع ، ظهـر أكثر من واحـد فى المغــرب ، فى الهنــد ، فى مصر والسودان ، ادعى كل منهم أنه هو ناطق الزمان ، لكنهم خابوا جميعا ، بقى هو مستترا ، ســامى ينظر الى مولاه ، يسـمع اقتراب الليل ، يرى أعــوامه الثــلاثين ، زمان •• زم أبوه شفتيه • فرح بنجاح ولده ، قال انه ســيبيع ما أمامه وما وراءه ، سيحمل حقائب المسافرين ، يقشر عيدان القصب فى مخازن محلات العصير • المهم أن يتم سامى تعليمه ، سامى دخـل الجامعة ، بالتحديد كلية الطب ، ربما جاء تعيينه طبيبا لمستشفى البندر ، يمتطى الحاج سلامة أغنى مشايخ البلدة ركوبته ، يمضى الى المستشفى، الثقة تملؤه ، الطبيب هو سامى ابن هارون القط ، أى والله هارون عرف يربى ، يقول سامى :

ـ يمكنني أن أعمل لأساعدك .. وفي نفس الوقت ..

يصيح أبوه : أبدا ، أبدا .

همس سامي وعيناه تحتويان ناطق الزمان :

ـ أينما ذهبت تتحقق الأمنيات . لن يتحسر انسان .

يقترب الغروب ، لايطيق سامي البقاء في حجرته، كل مايراه ، يتدفق اليه . حزين . يفصله عن العالم بحر صعب العبور ، مولاه يتمتم بأدعية تنأى بالوحشة، أصابعه تمسك طرف ردائه الأبيض ، في أي عصر نسج ، من أي قماش هو ؟؟ قال ان غربته لن تطول ، لن يرى أكثر مما رآه ، هنا في مصر منذ أربعمائة وسبعين عاما ، قبض عليه العسس ، ظنوه من العربان المفسدين ، رموه في سجن الجبل ، قضى فيه مائة عام ، وازدادت تسعا ، تعاقب عليه أجيال من الحراس ، استسلم للقضاء ، أليست عذاباته بعض مما يجري في العالم ؟؟ كاد سامي يبكي ، يسمع نواح أمه

ياليتني قبلك .

طفشت في الحارة ، تشد ثياب النساء ، تهيل التراب فوق شعرها ، تعض نفسها ، تقول للرجال

العـابرين • راح آبو ســامى • راح من يعولنا • راح رجلى • من يعولنا ؟؟ رجلى ؟؟ ألفاظ توجع سامى ، ينزل ثقل فى دمه ، تعريشة الأسرة انكسرت ، الدفة التوت ، الربان هوى فى قاع اليم ، النخــاع انســل هاربا من تجاويف المظام ، طوال شهور تلت ، آمه تلقى أحزانها فوق آمور صغيرة وقعت ، لو أنه لم يذهب الى آقاربه فى مصر القديمة لعاش ، لو أنه رأى اختــه نظلة ، راح محسورا لم يرها ، لو آخذ اجازة ، لم يعرف الراحــة أبدا ، لكن مانسبة هــذا الى مارآه ناطــق الزمان ؟؟ عذابات الكون منذ آن كانت الأرض صخرا ملتهبا ، ثم نبات وحشى خــال من الانســان ، الآن الليلة ، تولد الآمال ، تمتلىء الوديان خضرة ، تمطــر الســماء فى أفواه المحتضرين عطشا •

★★★

ــ اذن • • أنت تعرف اليوم الذى رحل فيه أبى • •

ليس هذا فقط ،.انما يعرف رعشة قلبه عنــدما عرف هدى ، لحظة مجيئها الى المتجر تشــترى فســتانا بسيطا ، تلاقى عيونهما ، ادراكه مرفا الحنين ، مــولاه يعرف طوافه الليلى ، هدى موجودة فى كل فتاة عابرة، تطل عليه من مكان خفى ، معه دائما ، يتخذ فى جوف

الليل قرارا ، آن يمشى من الحسين حتى كوبرى الجلاء ، يقف عند الحد الفاصل بين محافظتى القاهرة والجيزة، يتأمل أضواء العوامات الخافقة ، دوامات التراب الصغيرة والورق ، يلفظ اسمها قرب الفجر بصوت عال ..
هدى ..

ـ مادمت أتبعك ياضيا عينى يامولاى .. فلن أقطع الأمل فى رؤيتها .

هز الامام رأسه ، ضوء الطرقات هامس ، تنذر السماء بهلاك مجهول ، رآها الامام منذ ألف سنة ، ترى ، ماذا جال بعقول أهل الأزمان البعيدة ، وهم يتطلعون الى السماء ذاتها ، ما آثارته كل لحظة من أحلام ، الهمس المتبادل ، ناطق الزمان عرف الغروب فى قرى الهند الفقيرة ، رآه فى الاحساء ، فى نجد ، بين ربوع الشام والأناضول ، بلاد القفقاس ، بحر الزنج، والبحر المحيط ، تجاوزا شوارع الضجيج ، خرجا الى الخط الحديدى المار قرب الحقول ، المطار الصغير ، الأنوار الزرقاء على جانبى الممر ، تنفذ رائحة الليل ، أنفاس الزرع ، الوقود المتساقط بين القضبان ، المولى يتطلع ، يكشف حجب المستقبل ، يرى مدنا أخرى

منثورة فى أركان العالم ، جزرا صغيرة يسكنها الأعراب والصيادون ..

البحث وراء التعابير

المراكبية لايأخذون معهم أحدا ، لكن ريس هذا المركب عندما رآهما أفسح لهما مكانا رحبا ، قال لناطق الزمان ، انه انتظره طويلا ، عند المنحنيات الحادة فى المجرى ، فى جرى الموج ، راح يغني ، لصوته رائحة أرض الشراقى ، المتشوقة الى الماء ، يذكر امرأة بعيدة وعيالا صغارا ، يذكر مذاق البتاو البيتى ، الحليب الصباحي ، رائحة خبيز الظهيرة ، رحلته تستغرق شهرا كاملا ، ينقل الحبوب ، الغلال ، أوانى الفخار ، سامى يرقب خطو الليل ، الليل لاينزل من السماء ، انما يطلع من النيل ، من الضفتين ، من هسيس الحشرات ، ذرات الغبار التى تثيرها أقدام المارة فوق الطرق الريفية ، يترامى اليه تصفيق وغناء ، ربما فرح فى قرية نائية ، تدوم الريح فتطوى الزغاريد وطلقات الرصاص ، ناطق الزمان يغوص فى طبقات الظلام بعينيه ، اينما ذهب يدركه البعض ، يجهله آخرون ، أو يتجاهلون ، ربما أدركهم الأعداء المترصدون ، فى كل مكان ينتشرون ، قال الامام انهم فى البحار الكبيرة ، فوق

ثلوج الجبال ، في ناطحات السحاب البعيدة ، في الآثار القديمة ، في المصارف ، قواديس السواقي ، تجاويف الطنبـور ، بين آلات القطـارات ، حـول أذرع السيمافورات ، في أروقة المستشفيات ، في الابتسامات الصفراء ، ارتعاشات الجفون ، لو عـرفوه لانقضوا بحقد ، عمره آلاف السنين ، يتوارثونه ، سامى يضيع في رهبة الليل ، يصغى الى نبض العالم ، لايعـرف كم انقضى عليه تابعا لمولاه ، شهور ، سنين ؟ توقف عمره عند الثلاثين ، يبدأ من جديد ، أعوامه البعيدة المنقضية بسهولة قاسية لاتصدق ، كأنها سنين غيره ، من يدرى ، ربما لو مد البصر عبر النيل ، يلقى طفولته ، شبابه ، حارة البيرقدار ، وقفته يبيع الثياب ، مساومة الزبائن تغير النهـار خارج فترينة الزجاج ، ليس معقـولا أن ما انقضى ضاع تماما .. لابد من وجوده في مكان ، زمن ما ...

★★★

يرتعش صوت الشيـخ العجـوز ، ناظر مدرسة ابتدائية ، قال انه رأى تباشير الأمل فى انطلاق النهر كل عام ، فى اكتمال القمر بدرا ، قال ناطق الزمان انه لايجيء بالخوارق ، لكن شيئا فشيئا يدرك العـالم

الحقيقة فيقوم قومة رجل واحد ، سامى ، يقف عنــد آخر بيوت القرية ، حافة الصحراء ، يدوس بقدم فى الخضرة ، وقدم فى الرمال ، فى ســكون الليل يحــكى الشيخ عن رجال ماتوا بعد انتظار الامام طوال حياتهم، كثيرون خرجوا يبحثون عنه ولم يرجعوا ، توهج فى السماء نجم وحيد ، ليست المرة الأولى التى يجىء فيها الى هنا ، منذ مائة عام قضى بمصر زمنا ، ظهر فى كافة قراها ، نجــوعها ، لم يأمن أعداءه كهذه الفترة ، يظهر فى أسواق القرى ، يتحدث الى باعة الســمك المقلى ، وقطع البطيخ ، بالضبط قبل انكسار عرابى ، توالت الأيام ، تحسس وقع الهزيمة ، وبدأ الحزن يفاجئه ، لم يهاجمه سنين سجنه الطويلة ، ياه ‥ لايضارعه الا حزنه العظيم كلما تذكر موت الحبيب ، المنجب النجيب، ابن بنت رسول الله فى كربلاء ، فى كل عام ، عاشر محرم يقيم حدادا يكاد يهلك فيه ، لكن الحذار ، لو قضى لن يقوم أبدا ، لن يعرفه أحد ، أبدا يضيع ، اختبأ فى ثياب الفقراء القتلى كما اختبأ من قبل فى جراح ضحايا المغول بخوارزم ، انطوى مكتئبا ، فى فوهات المدافع المنطفئــة ، ناءت أعضــاؤه بالهم فاستتر ، لو أمســكه الأعداء لمزقوه قطعا أكبرها فى حجم الحبــات الرفيعة داخل ثمر الباميا ، غير أن فلاحا عجوزا من هذه القرية

عرفه ، تحسس سامي بعينيه البيوت في الظلام ، ربما نام الفلاح الفقير في بيت من هؤلاء ، ربما طبع أثر قدميه فوق التراب الذى يطؤه سامى الآن • اقتفى الفلاح خطوات الامام ، أقسم الايمان ، وأخذ على نفسه المواثيق والعهود ، لن يعلن حقيقة الامام لأحد ، انهما غارقان في زمن الهزيمة • الفرحة غاصت من القلوب، أما الحزن فيثقل الجميع ، شاب الأطفال ، قال ناطق الزمان ، ان هذه الأيام البعيدة ذكرته بأيام أكثر بعدا ، عندما دخل سليم العثماني أرض مصر ، ولعب سيفه في الرقاب ، فكاد ينهى الحى بها ، عندما اندفع المغول عبر بغداد ، واجتاحوا الشام في أيام ، رأى في الأعداء رجالا من قبائل الهون البربرية القديمة ، أعوان تيمور لنك ، الأسبان الغزاة ذابحو هنود الازتيك ، محاربون متوحشون يأكلون لحم الانسان ، ارتعش سامى ، يكاد يسمع وقع سنابك الخيول ، اصطدام السيوف بعظام الجباه ، قال ناطق الزمان لأبراهيم الفلاح العجوز ، ربما لاترى تحقيق الآمال ، تموت محسورا ، أصر الرجل على صحبته ، زعق مناديا ربه ، عند قرية «شطب» جنوب أسيوط نسى أهله وماله ، ناطق الزمان أبوه ، كفنه بيديه ، صلى عليه ، يومها تبللت السماء بمطر ، ناءت بحمل غيوم ثقال ، زعق الناس

في الصعيد ، أهذه نهاية الزمان ؟؟ أحرق الجثمان ، نثر الرماد في أركان العالم وزواياه ، ابراهيم العجوز تبعه حتى النهاية ، لم يعرف اليأس ٠٠ بكى ناظر المدرسة ، العارفون به ، الذين جاؤوا من القرى المجاورة ، طافوا معه البيوت ، يكاد سامي أن يرى الفلاح العجوز ، ابراهيم الراحل منذ مائة عام ، ذهب ولم تتحقق الأمنيات ، أما هو ، سامي فكل شيء يراه دانيا ، يدخل الجامعة يصبح طبيبا ، يسمع صوت هدى ، هدى الآن قريبة منه ، تقول :

ـ مرور سنوات لايعني شيئا ٠

تقلب السكر في كوب الكركديه الساخن ، لحظات صمتها في أذنيه حديث متصل ٠

ـ اسمع ٠٠ نبدأ معا ٠ نذاكر دروس الانجليزية ٠

لايرد ، تتدفق في صدره رغبة ، يحتضنها ، يذيب فوق صدرها حزنه ، ارهاق أيامه ، يرقص فوق منضدة الرخام ، يثب فرحا ، يهدأ ، ينفي آلامه ، آه لو يزعق في الناس ، تفيض عواطفه ، تعبر ضلوعه ، ولا عاصم بعد اليوم ٠

ـ لن يستغرق الأمر سنة ٠ تعيد دخول الامتحان ،

وألحقك أنا فى الجامعة · ليست رغبة أبيك ·· انهـا رغبتي أنا ياسامى ··

ينطلق سامى ، تتبدل الأشـياء ، يرق الهـواء ، يقول :

ــ هدى انت رائعة ·· انت ملاك ··

ــ ياسلام ياسامى ··

تضـيق مابين حاجبيها ، يمتلىء الفـراغ بينهما بالآمال ، تبدو له سنين عمله القاسية وهما ، اسراعه ليلحق مواعيد العمل ، الوقوف النهـارى الطـويل ، ابتساماته للزبائن ، لم يعرف هدى خلال هذه الفترة ، كانت تعيش فى مكان ما ، قبل أن يعرفها ، يفكر ، لابد أنـه سـيلتقى بانسـانة تعيش الآن فى منزل معين ، تتحدث ، تأكل ، ترى من هي ؟ تبرق عيناها فى ذاكرته، في اتساعها يرى البلاد التى تمنى السفر اليها ، البيوت المغلقة فى الشتاء ، داخلها أصـوات الشارع البعيد ، زعيق السكارى ، هـدى تحمل صـينية فوقها أكواب الشاى الساخن ، بين يديه كتـاب ، فى أنفـه رائحة الأثاث البيتى ، تسأله عما يحب أن يأكلاه غدا ، تتصل به فى العمل ، تدعوه الى غداء خارج البيت ·

ألا تذكر · اليوم عيد زواجنا الثالث ·

تحلق ذقنه كل صباح ، تميل تغسل ماكينة الحلاقة، يخطف منهـا قبـلة ، يحتضنها عنـد وقوفهـا أمـام البوتاجاز ٠

ياسلام ياسامى ٠ حاسب الشاى ٠

يدعوها الى السينما ، يمضيان معا ، يسمع صلاة ناطق الزمان . حديثه الى مريديه ، تضحك هدى ، يبعث أبوه حيا . مورد الوجه ، فرحا ، لا آثر لشقاء السنين حول عينيه ، ينفض الغبار عن لافتة مدرسته القديمة، تعود طفولته ، آه ماأقسى استرجاع الطفـولة ، يأكل كشرى الحاج عبد العاطى ، يفرح لمجىء يوم الخميس ، يعقبه الجمعة ٠ أجازة ، يسمع قبقاب أبيه العائد من صلاة الفجر ، يفرح فى لحظات الهدوء بين أمه وأبيه ، يعاكس الحـاج حامد مـدرس الرسـم الذى يقف فى الفصل . يتأكد من اغلاق الابواب والنوافذ ، يتطلع اليه الصغار ، يقول ٠٠ اسمعوا ياأولاد ٠٠ اسمعوا غناء عن مصر ٠٠ عن مصر ياأولاد ، يحمرّ وجهه ، ينظر الصبية الى بعضهم ، يتضاحكون ، يستمر غناء الحاج حامد . الآن ، يذكر مذاق صوته ، يكاد يبكيه ٠ يتحدث الناظر ، والخفير ، والرجال ٠٠ لكن لابد من مواصلة الرحيل ٠٠

***

ـ أرى دبيب أقدامهم • أشعر بانتشارهم •

أدرك سامى خوف ، صاح طائر غامض في الفراغ العتيم ، هل يجرؤ انسان ؟؟

ـ أنا لايدنو منى أحد • عنـــد الخطر استتر من جديد • أذوب فى الصخور •

ألجأ الى الكهوف الجبلية • أغوص فى عروق النحاس فى قاع منجم بعيد •

غير أن الأمنيات تشل الى حين •

سامى يهوى ، تصدمه أرض مجدبة ، يسفح عمره عند أفق المغيب ، تعـــود اليه لحظات احتضـــار أبيه ، رحيل هدى ، احترق قلبه يومها ، ما الذى جرى ؟

ـ متى يجيء الأوان الذى لابعـــده ولا قبله أوان يامولاى ؟

ـ ربما بعد شهر • بعـــد سنة • علم هذا عنـــد ربى

لو يزعق سامى ، يعبر صوته الهواء ، يجفف صديد العيـــون ، يدور مع ســـيور ماكينات الطحين ، أبراج الكهرباء ، الجمال المثقلة بالبوص •

ـ يكون عمرى انقضى يامولاى • لاأسمع هـدى أبدا • آيرضيك آلا آسمع هدى • لاتعود من الحجاز • لا أراها بكرا من جديد • لا أدخـل الجامعة • لاأداعب طفلى الصغير واسع العينين • طرى العظام •

زعق ريس المركب ، يلتوى القلع التواء حـادا ، يخفت السواد ، يفصح النهر عن ملامحه •

ـ نشقى من أجل الأجيال المقبلة ياولدى • ينعم أهلها ، يشربون اللبن من النهر ، يطـرح تنخيلهم خيرا وطمأنينة ، ياوون الى مضـاجعهم آمنين • الغـرباء المفزعون في سواد الليـالى ، يرق هـواؤهم ، يصـفو ماؤهم •

ارتجف سـامى ، أين آنا عنـدئذ ؟ آين مـوقع قـدمى ؟ آى آحجـار تثقل راسى ؟ الظلمة تغشى عينى جمجمتى الخاويتين ؟ آحلامى تتجمد فى أربعة وعشرين ضلعا ، عمود خال من النخاع ، رسغان وساعدان ، كل ما أصبوا اليه ، أين أنا حينئذ ؟ أين أنا ؟

★★★

يخوض مياه النهر الضحلة صياد عجوز ، يغرس حربة رفيعة مدببة فى ظهر البلطى والبياض ، سامى يتأمل قدمى الرجل ، منتفختان بالرطـوبة والطمى ،

أخبرهما أن القوارب تزحم النهر ، صغيرة سريعة ، في كل منها رجلان ، يوقفون المراكب الكبيرة ، يفتشون أواني الفخار ، ينبشون أجولة القمح والبلح ، حتى الآلات الصغيرة المرسلة في الصنادل ، يفكون تروسها ، لم يبد على الرجل أنه عرفهما ، أيضا لم يتضح هل يجهلهما ؟ لكن ما الذى دعاه الى اخبارهما بهذا ؟ عاد صامتا يخوض في الماء الضحل ، نظر سامي الى مولاه ، لطالما أطبقت عليه جبال أعلى من هذه ، صخورها أقسى، يعرف العالم شبرا شبرا ، وأرض مصر ، يعرف أى نتوء حجرى عند مدخل سمالوط ، التمثال الأثرى القديم قبلى جهينة ، الغرف التحتية في البناء المشيد قبل الطوفان ، حيث الجو رطوبة في الصيف ، دفء في الشتاء ، يعرف المصانع ، مواعيد تغيير الورديات ، صوت مدفع رمضان في دمنهور ، السويس ، صوته في قنا ، يحملق الى فراغ بعيد ، ربما يرى أشياء لايراها هو ، سامي توجهه خواطر مفاجأة ، ربما يعلو أزيز طائرة ، تطل منها عيون فاحصة ، تكشف المخبأ من الآمال ، يمسكون ناطق الزمان وتابعه الأمين

★★★

جنود اللورى عند المدينة الريفية الصغيرة ، بكاء

أحدهم على صدر الامام ، أسمر الوجه يتوسط ذقنه وشم أخضر ، مستدير ، باهت ، رآه من زمن ، كان مادة أحلامه ، والصور التي تخللت أيامه ، انه من الأنفوشي، يمتلك دكانا صغيرا يبيع فيه الفول والطعمية ، رآى الامام في صباه ، في كل تجويف يفصل بلاط الرخام الصغير الذى يرصع دكانه ، في مرض أمه وشفائها ، انتظره عند ساحل البحر ، في أبى قير ، فوق الصخور ، لاشيء ، انما صخور وحشية ، مقطبة الجبين ، تلتقى التقاء صريحا بالسماء والبحـر ، لم ينله يأس ، حتما ينطق الزمان ، من زرقة المياه ، من ملوحة طعمها فوق الشفاه ، من الطوابى القديمة ، مواسير مدافع عرابى الملقاه برثاء ، آه ياموﻻى ٠٠ جئت ، وأين ؟ هنـا ، ارتجف اللورى ، لانت ذرات الرمـال ، مالت عيـدان القمح ، ابتهل بقية الجنود ، دمعوا ، نزلا من اللورى ، تساءل سامى ، هل يراهم ثانية ؟ محمد ابن الانفوشى ؟ حسين نساج الكليم من فوة ، عبد الهادى عامل الآثار الصعيدى ، السائق النوبى ، قال ناطق الزمان : حتما سيرجع ، يلقاهم ٠ هو موجود حتى لو استتر ، فوقهم ، حولهم ، لاتبعده عواصف ، لاتقصيه صفارات انذار أو دوى ٠

★★★

« لماذا لم يقل لهم أنه ربما عاد بعد ألف سنة كما أخبرني ؟؟»

بماذا يجيبون لوعرفوا أن الأعمار ربما انقضت في انتظاره ؟ استعاذ سامي بالله ، يعرف أن الأعداء يطرقون الوسائل كلها ، ربما يذروا الشك فى حقل روحه ، توجهوا الى الحجاز ، ذبحوا هدى .. يحضرون دمها الحبيب اليه ، يرمونه على عينيه فيضيع منه البصر ، يقطع من رجوعها الأمل ، شربهما الكركدكه ، همسهما الخفيض ، توقفهما أمام فتارين الأثاث ، متاجر التحف ، تقول هي ، لابد أن يحتوى الصالون على فازة صينية ، تمثال محارب زنجي ، ترى الأطفال الصغار المصنوعين من الشمع فى متاجر الثياب ، تهمس ، أنا أحب الأطفال ، يخجل ، يتحدد الحديث ، تطلب بنتاً ، يتمنى ولداً ، يكتفيان لاأكثر ، أما اذا جاء الأول ولدا والثاني ولدا والثالث ، تضحك هدى ، لابد أن نصر حتى تجيء مديحة ، يسأل : لماذا مديحة بالذات ؟ لأنها تحب خالتها جدا ، هي أمها التى لم ترها ، لم تعرف الا هي منذ الرضاع ، يتساءل سامي : هل تذكر هدى بين جدران بيتها المغلق ماقيل ؟ ربما أنجبت ابنة الآن ، حجازية الجنسية ، هل اسمها مديحة أيضا ، السماء

خاوية ،صحراء فى عينى سامى ،الذكرى تلون الأشياء، تنأى بالامام عنه ، يفيق الى وجوده •

★★★

ـ لابد أنهم يسدون مفارق الطرقات • يختبئون فى عربات الرحيل •

يكاد يحس لون نظراتهم ، قسوة خوذاتهم المكسوة بشباك التمويه ، الهلاك فى أسلحتهم ، تهب ريح عاتية، السماء حـزينة ، الأرض تقلع ويفيض الماء ، سكت الامام لحظة كالسنين ، ثم قال انه يعرف دربا صحراويا غرب قرية الغنـايم ينتهى فى صـحراء السودان ، لم تطرقه قدم انسان منـذ مر به يتبعه ابراهيم الفـلاح العجوز ، يمضيان فيه ، يخرجان شمال أسوان ، خطت قدماه فوق الحصى ، رق الغمام ، غير أن شيخوخة غريبة، زحفت فى عروق سامى ، لكم أحس بقصر عمره ، فى مقهى الكلوب العصرى يطوف رجـل ضخم ، يرتدى معطفا جلديا ، فوق ظهره رسم لوحـه أحمر ، مشوه الملامح ، بارز الأنياب ، لايدرى أهو لجن أم انسان ؟؟ أربعة شهور ، فى كل يوم ، نفس الميعاد يجىء ، يضع بطاقة صغيرة فوق منضدة الرخام •

« اقرأ الكف ، حاضر ، مستقبل ، أحلام ، أمنيات سيد سعيد » •

يهز سامي راسه ، يمضي الرجل ، حتى استبد الفضول بسامي ذات مساء ، شد الرجل كرسيا ، بسط سامي راحته ، ضيق الرجل عينيه ، أسند رأسه الى يده، رأى سكة الصفر ، وضيقا في العمل ، ومرضا في الصفر •

ـ لكن عمرك قصير • ولو عشت مائة سنة •

ماذا يقصد ؟؟ أى شيء يعنى ؟؟ لكنه قام ، دس بطاقته في جيبه ، طلب خمسة قروش ، في هذا الوقت لم يمض على سفر هدى أسابيع ، هجره النوم ، راحة عقله متعة نائية ، لايدرك صاحب المتجر ذرة من همومه ، أما الزبائن فيشيرون ، أعطنا من هذا ، لا •• من الأحمر ، اقطع أربعة أمتار ، لاداعى ، نلف ونرجع ، يشرب الماء تسبقه الأقراص المنومة ، حكى لناطق الزمان عن عذابات الليالى ، سهره حتى مجيء الرجل العجوز مجدوع الأنف ، في الفجر تماما يصيح : «يانايم قوم وحد الدايم •• بكره تقوم القيامة •• وينصب الميزان ، يبقى اللي وفي يعدى • أما الشقي حيران» يدرك أن يوما انقضى ، يزعق الرجل ، تبقى

النوافذ مغلقة ، من عشرين سنة ، اذ يقترب الفجر ، يصيح رجال الحارة على بعضهم ، الحاج حنفى جساس البهائم ، يدس يده طوال النهار فى الأرحام ليعرف الأنثى المقبلة من الذكر ، يصيح على سعودى الجزار ، سيد الترزى ، على المكوجى ، ينادى أبوه ، فى دفء فراشه ، يسمع وقع القباقيب فوق بلاط المساكن ، اندفاق المياه من الصنابير ، تجمعهم فى الحارة ، عن ليالى الشتاء ، يمضون الى الحسين ، أصواتهم عالية ، تبقى معلقة بين البيوت زمنا بعد ذهابهم •

***

آه لو يسأله سؤالا واحدا • هل ينوى الاستتار عنه • الاستتار عنه هو ؟ هو الذى ودع كل شىء ، لايجرؤ على نطق الكلام ، يردده عقله ، فى خطوه فوق الرمال القاسية ، تحت انصهار الشمس الذى يزرع العوسج فى العيون ، يعرف أن الامام يدرك مافى خاطره ، عالم بكل شىء ، قرأ كل ماجرى وماسيجرى فى كتاب الجفر الذى تركه الامام على ، فيه رعشة الأمل ، خفقة القلب ، هم الفكر ، فرحة الغريب بالعودة الى دفء البيت ، آه لو يجيب حيرته • يفك ضيقه ، يلملم عذابه • لكنه لم يفه بحرف •

مناجاة القلوب

ماذا يفعل بدونه ؟؟ يسحقه يأس مخرب كالغزاة ، لحيته طالت ، ملامحه تغيرت ، قبل رحيل أبيه ، موت أمه ، قبل حدوث شيء مخيف ، تمر به لحظات يتجسد فيها ماهو متوقع ، عند خروجه من سينما الكواكب ، عودته الى البيت فى منتصف الليل ، يرى اللحظة التى تموت فيها آمه ، بكل سوادها الذى ينزف دما ، عندما رحلت رأى أن الموقف غير جديد عليه ، الآن يهوى قلبه بين ضلوعه ، يرى لحظة يخافها ، استتار الامام ، احتجابه عنه ، هل يقتل نفسه عندئذ ؟؟ وهل هذا سبيل للعثور عليه ؟؟ الآن يجلسان آمام كشك صغير داخله عجوز نوبى ، يحرس ملايين الأطنان من الطفلة المنتزعة من المنجم القريب ، مهجور منذ شهور ، لكن من يتوغل أربعين كيلو مترا شمال آسوان فى الصحراء ليسرق حفنة حجارة أو طن حتى ؟؟ الصخور تغرقها ، تتخذ أشكالا غريبة : وجوه آدمية ، سيوف مشرعة ، بيارق مكسورة ، فيها يرى كل شبر وطئه مع مولاه ، القرى ، الآمال فى العيون ، بلاد الأفغان النائية التى شرعا فى الرحيل اليها ، الهند ، البحار الجنوبية ، سفن صيد الحيتان ، رائحة العشب فى الغابات ، قرقرة

النرجيلة فوق المصاطب ، تطلع الحراس فى بطاقات الغرباء ، فى الصخور عيون واسعة قاسية فارقت رؤوس أصحابها ، ناطق الزمان صامت ، لماذا ؟؟ لايتحدث عن جيوش الأعداء التى رآها ، أو غضبة الأرض ساعة الزلازل ، الفيضانات ، الأوبئة تكنس البشر . يسيح بعينيه عبر الأفق ، أيكشف حجب المستقبل . ربما ضاع منه كتاب «الجفر» الذى يحوى كل شىء ، من بعيد يحبو عويل قطار ، يفاجئه حنين المسافرين . شعور الغربة المكثف لحظة عودة الأسرى ، لماذا يسكت الامام ؟؟ لماذا يطل الحرمان من جديد ؟؟ يكاد يصرخ . يطلب منه آن يصارحه بما ينوى ، أما الحارس النوبى فينظر اليه ولها خاشعا ، كأنه قضى فى رفقته العمر كله .

★★★

قال ان عربة لاندروفر ، تتجه الى أحشاء الصحراء ، ركابها أربعة ، يحملون أسلحة ، وآلات تصوير ، قبعاتهم تقيهم الشمس ، تابعها ببصره حتى اختفت وسط أعمدة الرمال الناعمة التى ترتفع من الأرض لتتصل بزرقة السماء ساعة الظهيرة ، تمطى فى الفراغ عواء ذئب ، قال الحارس العجوز ، كأنه يقدم

تقريرا مفجعا ، ثمة طائرة حومت الى الشرق ، جرادة ضخمة ، يظن البحر مقصدها ٠

***

سامى يرى نفسه الآن مصلوبا ساعة مغيب ، ينادى الامام أن يظهر ، يعيد ما انقضى ، كان كل ليلة يمضى الى مقهى مصطفى درويش بميدان الحسين ، يشرب الحلبة ، ينظر البنات المسرعات الى بيوتهن ، يرى رجلا مجذوبا يلف حول رأسه عمامة حمراء فى لون الدم ، يلبس جاكتة عسكرية عليها شارات ونياشين ٠ تجاورها أغطية زجاجات البيرة ، البيبسى كولا ، يرفع سيفا خشبيا ، يترصد أعداء يراهم هو ، يطارد أجانب خان الخليلى اذا ماحاولوا التقاط صورة له ، صار يقف فى الميدان ، لحظة الغروب ، ينادى الليل ألا يقبل ، والنهار ألا يرحل ، يرميه العيال بالطوب ٠٠ «بلعو ٠٠ بلعو ٠٠» عند حارة الوطاويط رآه دامى الوجه ، يمسك احدى أسنانه بيده ، أى بشر يدنو منه ، هو عدو يبغى رأس الحسين بسوء ، سامى الآن يرى عنقه فى قبضة جندى يسوقه الى غرفة الحجز فى قسم ، يلقيه بين اللصوص فى غرف الحجز ٠ يسالونه لماذا جاء ، أى تهمة ؟ بماذا يجيب ؟ لايأخذه يأس ، يفتش تحت أخشاب الحجرة ،

وراء طلاء الجدران ، فى القضبان التى تسور العمر ، فى غرف التعذيب ، فى اللوريات الرمادية المغلقة ، تأتى امرأة سجين تناديه من الطـريق ، يتعلق السجين بقضبان النافذة ، تحكى له عن أخبار العيال ، ذهاب أخيها الى المحامى من أجله ، أمه بخير ، سيجذب سامى الرجل ، يتعلق بدلا منه ، يسأل المرأة ، عابرى الطريق عن مولاه ، آه ، يترقرق الحزن فى عينيه ، يرى نفسه معتقلا ، أو نزيلا فى مستشفى للأمراض العقلية ، ولو .. سيبحث عنـه ، ربمـا تخفى بين النزلاء ، فى الأشجار الجرداء ، فى ذرات الرمال المرشوشة بالبول ، كل صباح يكتب خطابا الى هدى ، ينتظر مجيئها فجأة، تطبع أثر قدميها فوق الأرض التى مشيا عليها من قبل ، لكن .. لو ألقاه الأعداء فعلا وراء الأسوار من يزوره؟ من يحمـل خطـاباته ليلقيها ؟ من أين يأتى بطـوابع البريد ؟ روح أبيه تحوم حوله ، يرى أمـه وهما عند أشجان الفجر ، آه لو يقول كلمة ، صمته يلوى روحه . يفيض أسياخا محماة فى قلب سـامى ، لو كلمـة ، آه ياناطق الزمان ياامام ، الممر الطويل تمهيد للحظات الصمت هذه ، أهكذا .. ببسـاطة حادة مرهفة كحد السكين .. أهكذا ؟

خراب الجسور

(١)

« .. عندما سمعت صوت أختى «سنوات» . على الطرف الآخر من التليفون تعجبت ، تساءلت عما جرى، لاتحدثنى هنا اطلاقا ، تشير الساعة الى تجاوز الثالثة والنصف ، بدا صوتها بعيدا مما آجهدنى فى التقاط الألفاظ .

ـ من أى مكان تتحدثين ؟؟ .

ـ تحت البيت .

ـ بيتنا ؟؟

ـ طبعـا . من الاجـزخانة . بـاقي لك وقت طويل ؟؟

ـ حوالى أربع ساعات .. ثم أذهب الى الكلية .

ـ هل جرى شيء ؟؟ ارفعي صوتك .

ـ أنا مصرة ناكل معا . أتمنى الحديث اليك . من مدة كبيرة لم نقعد على مائدة واحدة .

ـ لابد فيه حاجة .

ـ أبدا والله . نفسى أتكلم معك .

ـ لكن ..

ـ ولايهمك . أقضى شغلك ومهما تأخرت . أنا منتظرة .

لم أرها أثناء الحديث ، لكن صوتها ، تدفق الكلمات ، أوحيا بالبهجة التى تزحم روحها ،رأيتها تقف ، تحيط بوق السماعة بيدها ، صوتها خفيض ، تشب على أطراف قدميها ، تقطب عينيها اذ يرق حسها . « .. نفسى أقعد واتكلم معك .. » تختلف مواعيدنا ، تضمر أوقات لقائنا ، تقل مرات أحاديثنا . أول النهار لا ألمح الا آثار عملها المبكر فى البيت ، نظافة الصالة ، افطارى فوق الصينية الخضراء المنقوشة بورود حمراء ، أطيل تأملها ، ومتابعة فروعها المتشابكة ، طبق فول ، بيضة مسلوقة ، ملح ناعم

مخلـوط بفلفـل ، آكل بسرعة ، لا أنظف الأطبـاق ، «سـنوات» تنفض الغبار عن الكتب ، تلملم الملابس ، تخصص يوم الثـلاثاء للغسـيل ، تنهى كل شىء قبـل وصولى ، أعود متعبا ، يضج النهـار فى رأسى ، زحام عربات وعرق ، وبحث فى أدغال القواميس عن معان مبهمة ، ألوذ بفراشى الضيق فى ساعة متأخر ، أسـمع خطواتها الخفيفة ، تلامس مشـاية اللوف فى الطرقة ، تطل على ، تقف بباب حجرتى ، عينـاى مفتوحتـان ، لا أتحرك ، لا أنطق حرفـا ، أخبىء يقظتى ، أضيـق بحروف خفيفة قـد نتبادلها ، تصغى ، ربمـا الى وقع انفاسى ، تتراجع على مهل مخلفة همسا من رائحتها فى الغرفـة ، اسـتعدت ملامح صوتهـا ، «نفسى أقعـد واتكلم ٠٠٠٠٠» أى مناسـبة أو حدث ؟؟ فى زحـام حياتنا تفقـد المناسـبات أجهل يوم ميـلادها ، أعرف ابريل لكننى لا أدرى اليوم ، لا نتبادل الهدايا ، توقفت عن ترجمة البحث ، مكاتب الصـاج مصفوفة أمامى ، فى السـقف تدور المروحة الكبيرة على مهل ، أى جدوى لهذه الدورات ؟؟ الحـر يتمدد فى الفـراغ ، استعدت هدوء البيت ، صورة أمى وأبى ، تطل علينا من اطار كبير ، طرقت صاج المكتب بقلمى ، «٠٠ نفسى أقعـد واتكلم ٠٠٠»

(٢)

يدا الليــل غطاء كثيفا من غــربة وارهاق ، أرى ذرات الفراغ ، عاط بوق عياطا متصلا انقطع فجأة ، أى أمور شغلتنى ، أضعت حديث «سنوات» منى ، أى واقعة بالتحديد ؟؟ خروجى من المكتب ، تحسس جيوبى بحثا عن دفتر تليفونى ، ضيقى وعودتى الى الكتب ، اخراج مافى الأدراج ، فض المظاريف ، ثم يبرق خاطر كطلقة • افتح الحقيبة • أتناول الدفتر ، أقلب وريقاته، أضمه فى جيب قميصى ، كيف نسيت ماقالته ؟؟ بعد المحاضرة الثانية ، وقوفنا فى الطرقة أمام المدرجات ، مجىء مجدى يقضم رغيفا صغيرا سـألته ، من أين ؟؟ أشــار الى الخارج ، اعتبرت هــذا عشــاء يكفينى • «سنوات» فى عينيها وحشة أنتظار ، تقف أمام المطبخ، تمسك خصرها بيديها •

ـ قم واغسل وجهك • أعددت مايسرك • ولم أنس السلطة الخضراء •

ينتصف الليــل بعــد قليــل ، أقاوم ثقل جفونى ، لا أدرى ما الذى يحــرك « ســنوات » بخفــة هكذا ؟؟ ربمــا تخبىء مفــاجأة • عضضت شــفتى ، استمدت هزهزة الاوتوبيس ، تعلقت بعينين واسعتين تنظرانني

من فــوق أحــد مقـــاعد الدرجــة الأولى ، نافــذتان شفافتان ، بيرقان يرفرفان على عالم فيه راحة ، وأمان، ووعود غامضة بالوصول • اتخذت موقعا مناسبا يمكنني من اطلالة عليهما • أحيانا تحولهما صاحبتهما الى الطريق، كأنها تعرفنى ، وتعرف «سنوات» من أين جئت ، والى أين ؟؟ ازددت قــربا ، في انســـيال النظــرات نبــل أســطورى ، ألغــاز حضــارة بعيدة • تمنيت النزول ورائها ، أقف على سرها ، أفك رموزها ، تابعت نزولها، اعتذار خفى بكل كيانى ، المحاضرة بدأت فعلا ، هل سأراها ثانية فىأى مكان ، متى ، تقول «سنوات» :

ــ أنظر هذه المجلة الانجليزية • منذ شهور قررت أن أعد لك هذه الأطباق • لن تأكلها مرة واحدة طبعا • انما ســأعدها لك صنفا صنفا ، وكلما سمح مصروف البيت • مد يدك • تذوق ••

قضمت نصف أصبع كفته •

ــ الطبق كأنه تجسد خارج الصفحة •

ــ ولكن ••

مدت يدها ، أصبعها يلامس شفتى ، حركة تفيض أنوثة ورقة ، عاودتنى زرقاء العينين ، زرقة حقيقية ، نغمية ، راودنى يقين أننى سأراها فى الحلم ••

ـ لاتخش المصاريف • تكاليف الطعام اليوم بدعوة منى • ياأخى العظيم • عندى بقية نقودى من جمعية قبضتها منذ شهور • أنت مدعو الليلة الى العشاء •

تفدق من عينيها حنو عظيم على ، الخطوة الطبيعية أن أقوم ، أحتضنها ، أقبلها ، ثقل يحوشنى ، عواطفنا لاتعبر عنها بالقبلات ، حتى مرات سفرى النادرة أكتفى منها بملامسة اليد ، لانلوح بالأيدى ، ينعقد اللعاب فى فمى ، يبدو الطعام شهيا ، لكن • هل أتساءل عن امكانية بقاء الطعام الى الغد ، تبدو مستعدة لحديث طويل بعد العشاء ، «نفسى أقعد وأتكلم ••» أود اللجوء الى فراشى فى لحظة ، قبل خطوها الى الداخل • ناديت •

ـ سنوات •••

التفتت •

(٣)

لمحتها •

لم يخنى نظرى ، ولست مخطئا • عند نهاية الكوبرى تتدفق المركبات ، يمكننى القفز من العربة

قبل المحطة • أستدير ألحقها • آتأكد مما رأيته • يبدو النيـل ، أمواجه تمضى فى وثبـات لينة ، النهـار لم ينتصف بعد ، لم تمض دقيقتان . لاتكفيان للعبور الى الطرف الآخر ، اذن تحركت الى هذا الاتجاه ، بالتأكيد لا تتـأبط ذراعه ، انما تمشى بجواره تمـاما ، يلوح بيـده ، هى صـامتة لكن ملامح وجهها تصـل الحديث بينهما ، آدركت تعبيرات وجههـا فى رؤيتى العـابرة ، بخطى تقترب من الجرى ، حـاولت دخول الحـديقة • صدنى حارس أسمر اللون •

ــ ممنوع • ممنوع ياأستاذ •

لم آجادله ، لابد آنهما اتجها الى الطريق المحاذى للنيـل ، ثلاث درجات بها تقترب الأرض من النيـل ، مـددت البصر ، بلاط مربع كبـير ، التراب مخـلوط بزهور جافة تتسـاقط ، رائحة نبـات مهروس ، تموت هنا أصوات العربات ، الطريق قريب ، لكن ثمة هدوء متراخ فى الفراغ ، لا آحـد هنـا ، كيف • فى هـذه الساعة من النهار ، حتى العشـاق نآوا ، وباعة عقود الفـل ، والتـرمس ، والزهور ، واللب ، ومتـكدرى الخاطر المعتصمين بهدآة النيل ، تلفت ، يمتد الكوبرى كقلعة ضخمة من الصلب والأسـفلت ، دعائمه تطمن

النهر ، تتحرك العربات بلا صوت يدرك هنا ، كان حاجزا غير مرئي يجمد الأصوات ، يحول المنطوق الى صامت ، أين ذهبا ، تأخذني رغبة حادة لأراها الآن ، أمد لها يدا ، أتعرف اليه ، أطلب منها أن تجيب ، هل تحبه ، هل تحبه فعلا ؟ أسأله ، هل يحبها ، أمسك أيديهما ، أميل ، أقبلها ، أنتحى بها ركننا ، أصغى الى كل ماتخبئه ، «٠٠نفسى أقعد وأتكلم معك ٠٠» أخفف عنها ، أزيح ثقلا تنوء به ، ربما دعوتهما الى عصير فاكهة في الكازينو القريب ، نمشي ثلاثتنا ، ياه ٠٠ لم نخرج أبدا للنزهة منذ وقت بعيد ، لم ندخل سينما. لم نزر احد أقاربنا معا ، لا أعرف أسماء صاحباتها . رأيت بعضهن في البيت ، بتحفظ صافحتهن ، تجهل أصدقائي ، زملائي في قسم الدراسات العليا ،
لا أتساءل عن الاماكن التي أتردد عليها ، أبدا ٠ سأصارحها الآن بضرورة اقترابنا ، لن أمضي الى الكلية لكن الطريق موحش ، الزحام قريب والخلاء هنا عجيب ٠ عيون النيل الخفية تنظرني ، ريح خفيفة تحرك أوراق الشجر ، ربما رأيت أسطورية العينين الآن . سأتقدم منها ، أحدثها عن «سنوات» ، نبحث عنها معا ، فوق النهر يمضي مركب شراعي متمهلا ، لم ألمح فوقه انسانا ، لا أدرى أين ذهبت سنوات ٠ أين

صاحبها ، أين تقيم زرقاء العينين ، أين تخفى أسرارها ، يهبط قلبى بمقدار قبضة يد ، ربما تركب قطارا يحملها الى مدينة أخرى ، ربما سافرت الى بلدة بعيدة لن أذهب اليها قط ، تحادث غرباء وتناجي غرباء ، ربما ‥ ربما رحلت رحيلا أبديا ، ثلاثة أيام مضت على رؤيتها ، مايمكن وقوعه خلالها كثير ، أما سنوات ، أين ، وكأنني ألمحها ، لم أود الاصغاء الى ماتكنه الآن ، أثق في رؤيتها ، أدركني عجز وناء بى أسى ٠

ـ سنوات ‥ سنوات ٠٠٠

(٤)

رأيتها تقف بالباب ، أنهيت اضطجاعى ‥

ـ تعالى ‥

أومأت مرحة ، جلست عند طرف السرير ، تبسط راحتيها ، تضمهما ، تدسهما بين ساقيها ٠

ـ سأعطلك ٠

ـ أبدا ٠

ـ عموما قررت الليلة ألا انام حتى أراك ٠

ـ خيرا ٠

بدلال هزت رأسها ٠

ــ أبدا ٠٠ أراك ٠٠

أطرقت ، على مهل تقول :

ــ وأتكلم معك ٠٠

تتأهب للافضاء بما تود البوح به ٠ فى هذه اللحظة أدركت أننى نسيت تماما ملامح زرقاء العينين ، اختلطت بالزحام ، وأشجار حديقة الأورمان والخضرة الخصبة ، لكننى لم أفتقد خلاصة المعانى ، أين ذهبا اذن ؟ كيف ضاعا منى ؟ رأيت ألا أفاتحها فى الأمر الليلة ، ربما امتد الحديث وتشعب الموضوع ، لست متأهبا للاستفسار والمناقشة ، جاءت بنفسها ، هل لمحتنى أثناء بحثى عنها ، منذ أيام أخفت ضيقها ، حتى الآن لم نأكل معا ، أول أمس ، قالت انها لن تدع يوم الجمعة يفلت ، ستغلق الباب ، لن تسمح لى بالخروج ٠

ــ هل أعطلك ؟؟

ــ أبدا ٠ أبدا ٠

تعض شفتها السفلى ، بحركة خاطفة تتربع فوق السرير ، نظراتها جانبية ضاحكة ، لم أعتد هذا الخجل

الأنثوى ، عنــدما آنظر الى صــورها آثنــاء الطفولة ، لا آتعرف فيهــا على مقــدمات هذه الأنثى التى تفيض حيوية • تستعد للحديث •

ــ تعرف ؟

لحظة نطق الكلمة ، بلا قصــد ، نظــرت ســاعة معصمى ، تمضى العقارب الى الثانية صباحا ، قامت •

ــ واضح أننى أعطلك •

بريق الحماســة خبا فى عينيها ، الألفاظ صرعته عند طرف لســانها • تدلت يداها ، قطعت حبلا يصل الأشرعة ، مزقت وصلا كاد يتم •••

ــ أبدا • اننى أسمعك •

عبثــا تلتئم الضفــاف ، أعطبت ودا رائقــا فى عينيها •

ــ أعرف مشاغلك ، لن أعطلك •

فى صوتها خيبة من آوشك على بلوغ المراسى . ثم اكتشف وعورة القيعان . نتوءات الصخر الحجرى . فعلا سألقى راحتى بمفردى اتمدد قبلك . استدعى حوادث يومى ، أرقب دولاب الكتب فى العتمة . قبل خروجها صحت :

ـ ياه • كدت أنسى • خيــل لى أننى رأيتك فوق كوبرى قصر النيل عند الظهر ••

ـ أنا ؟؟ أبدا • أنا لم أفارق عملى اليــوم كله • يمكنك أن ••

تبدو فرحة قليلا بتلميحى ، صــدور اهتمام من جانبى ، ربما استعادت حماستها ، تعود الى الجلوس ، تحدثنى عما تكتم ، أبدا ، الصدأ يخنق البريق ، تثاءبت ، أغدقت حنوا على صوتى •

ـ أبدا ياسنوات • يكفى قولك هــذا • خيــل لى فقط •

(٥)

لا أدرى كم نمت ؟ فى هدأة الليل اذ يدركنى قلق ، أعود جنينا أتلمس جدران الرحم ، يثقلنى همود الليل ، بينما يعدو النهار فى رأسى ، أرى مالم أتوقف عنده فى يومى الراحل ، أســتعيد ملامح عجــوز يمشى مرتجف الخطى ، يوشك أن يقع ، بعد أيام أدركت هدفه ، فتاة سمراء صغيرة ترتدى زى المدارس الثانوية ، تطل من حقيبتها كراسات ، ومســطرة ، وعلبة ألوان مائيــة ، يقترب حتى يحاذيها ، يبتعد ليعود من جــديد لحظــة

وصول أتوبيس ، تنتشر الحـركة بين الواقفين ، يزداد قربا منها ، اليوم سمعته يلقى تحيــة مقتضبة خجولة «صباح الخير» أسرع مختفيا ، تنظر الفتاة الى الأمام ، لايعنيها مايدور حولها ، الآن ٠٠ تطل زرقاء العينين ، السمات ضائعة ، لكن الجوهر لم يفتقد ، تنظرني من اطار باهت قديم ، لحن غير منطوق يأتي من جزر بعيدة، لغز من حضارة قديمة لم يحل ، أضعتها بسهولة ، فى المكتب أثقلنى وجودها داخلى ، قام جلال زميلى ، اقترب منى ، شكا الى ألما فى كليتيه ، قلت اذهب الى الطبيب لعمل أشــعة ، وددت لو ابتعد عنى ، عـدت باحثا عن معنى العينين ، أمسك يـدى ، لامست جنبــه الأيسر ، ضغط أصابعى ، هز رأسه ، ليست هى السبب ، قلت مــاذا اذن ؟ مال الى هامسا ، قال انه منـذ ليلتين فتح النافذة ، لا عمارات آمامه ، يطل على خــلاء وسيع ، أصر أن ينام مع امرأته فى ليلة الصيف الحارة هـذه ، تمدد بجوارها حوالى العاشرة والربع بالضبط ، يذكر الوقت تماما ، التحمــا ، التصــقا ، احتكا ، مثيرات ومقدمات ، كم استغرق ؟ خمس ساعات كاملة ، حتى كادت تجن ، وعندما صرخت من اللذة كان العرق يبلله تماما ، أثناء الحديث صوته يتمهل ، يبدو بطيئا يبتلع لعابه ، أصميت ، يلقى متعة فى قص التفاصيل ، قال:

بالتأكيد نسمة برد هي السبب ، اذ حـدث في حـوالى
الثالثة والنصف بعد استلقائه هامدا • آن هبت رقائق
هواء نفذت كالابر الرفيعة الى كليتيه • قلت يستحسن
الاسراع بالعلاج ، البرد فى هذه المناطق وعر وخطر ،
لابد من الذهاب الى طبيب ، قام • بعد ساعات عاد الى
هامسًا ، خمس سـاعات ، آى والله حتى كدت آجن ،
راودنى حنين الى آسرة وآطفال ، آنثى فى متناول اليد•
لم آسأل «سنوات» عن آفكارها حول الزواج ، الرجل
الذى تنوى قضاء بقية عمرها معه ، صورته فى ذهنها،
ربما آحد زملائها ، لا آعرف واحدا منهم ، لم آزرها فى
العمل مرة ، غدا سأسألها عنهم ، عن معارفها ، غدا بعد
عودتى سأوقظها لو وجدتها نائمة ، نجلس معا ، نتبادل
الضحكات ، آمس كنت قاسيا ، غليظ القلب ، عندما
ساتود قوله ، لم آصغ ، الآن •• يترامى من بعيد صوت
قطار يعبر الخط الحديدى القريب ، بدا الصوت مطأطأ
كأنه لن ينتهى ، فى آويقات آرقى يثير فى هذا الصوت
حزنا ، وذكرى آياما غائبات ، آرهفت السمع • باب
حجرة «سـنوات» يفتح ، التقط صريره الضـئيل فى
نهاية الطرقة ، تتجه الى الدورة ، لم تضىء المصباح ،
هل آقوم ؟ آقفز آمامها فجأة بعد فتح بابى ؟ دعابة من
دعابات الزمن البعيد ، فى البـداية سـتبدى انزعاجا

لكنها تضحك ، نتعانق ، صوت ورق يمزق ، ماذا تفعل «سـنوات» ؟ لم يغلق باب الدورة ، واضح أنهـا تقف أمامه ، أوراق تمـزق قطعا صـغيرة ، يبطىء صـوت التمزيق اذ يزداد سمك الورق فيصعب تقطيعه ، تشد «السيفون» تتـدفق المياه بسرعة عالية ، اتخـذت من طشيشها ستارا لنزولى من السرير ، أصغيت من خلف باب حجرتي ، أى أمر يحدث ؟ يد طويلة الأظافر خمشت قلبى • تبكى «سنوات» بصوت عال ، نشيجها يصلنى واضحا • ارى جسمها يهتز ، تذرف دمعا ، حتى رأيتها تبكى ؟؟ لحظة انزال «والدنا» غرفة الدفن ، اندفاعها المفاجىء ونواحها الملتاع ، أيدى الحريم تمتد اليها ، تحوشها ، تمنعها • «سنوات» الآن تبكى ، جاءنى صفير القطار من بعيد خيطا متسلخا متعبا ، يذوب فى الليل، عندما انتهى أحدث خواء كونيا وحشيا صارما يثقلنى، لم أدر هل بقيت فى الصالة ، هل عادت الى غرفتها ، هل تقف مكانهـا ؟ تلملم ماتناثر من قصـاصات لتعاود أبادتها ، هل ارتابت فى قيامى فأخرست نوحها ؟ هل سمعت فعلا حـركة قدميها وطشيش المياه ، غـدا •• أستفسر وأعرف ••

(٦)

طلعت السلم بسرعة ، لن أذهب الى الجامعة ، سنخرج مقعدين الى الشرفة ، نجلس معا ، لن تضايقنا الشمس ، تواجه الآن جانب البيت الآخر ، تدثرنا ظلال حانية ، نأكل معا ، نتحدث ، نتحدث ، «نفسى أقعد وأتكلم معك ..» لا أنسى هزة صوتها عبر الأسلاك ، أصغى اليها ، أقول وكان حديثى يبدو عابرا ، خيل لى فى الليلة الماضية أنك قلقت ، وانك تبكين» .

ـ أهلا . أى مفاجأة .

افتقد رائحة البيت فى مثل هذا الوقت ، عبير الاستقرار ، رائحة الأثاث ، والغسيل ، وطعام طهى فعلا . حملت الحقيبة عنى ، لاتتحرك بخفة ، افتقدت بهجتها . عندما نبدأ حديثنا ستتبدد الوحشة . باب حجرتها مفتوح .

ـ الله .. عندك ضيوف ؟

ـ سهام صاحبتى . تعال أعرفك بها . تعال .

قامت سهام ، تبدو خجلة .

أخى ياسهام .

فاجأنى افتقاد زرقاء العينين ،كريستالية النظرات،

لحظات فى مركبة عامة ، عمر طويل من علاقة لم تتصل، طاقة قدر فى سماء فسيحة ، تبرق لحظة ، لايراها الا صافى القلب • فوق السرير مجموعة من صورى ، تعرضها سنوات على صاحبتها ••

ـ لاحديث لسنوات معنا الا عنك • عرفناك قبل أن نراك •

ـ ياه •• سنوات تبالغ •

تراجعت برأسها الى الوراء ، تقول • بجرأة تمحو آثار الخجل الأولى ••

ـ أبدا •• ياسلام ••

هل طالعتنى عيناها فعلا ؟ هل رأيت «ستوات» فوق كوبرى قصر النيل؟ تشب على أطراف أصابعها ، تعاودها سعادة ، تود لو بقيت معهما ، عدت الى الصالة ، تنفذ رائحة البيض المقلى • قالت انها لم تعرف نيتى فى العودة مبكرا ، لم أقل اننى رغبت فى الحديث معها ، أسألها وتجيب ، قالت انها لم تشتر بسطرمة لكنها تظن البيض والجبنة كافيين • عادت الى بسهام ، سمعتها تقول انه يرهق نفسه كثيرا ، يخرج من مكتب الترجمة الى الكلية ، يواظب على المحاضرات ، قالت انه لن يهدأ

حتى يحصل على الدكتوراه، بعد الماجستير ، قالت بصوت
خفيض ، أوقفت مضغ اللقيمات ، أن أخاها مثابر ،
قالت سهام كلاما لم أتبينه ، ضحكت سنوات ، عاودني
الصوت خفيضا ، تتوالى دقات هاون نحاس من الطابق
العلوى ، خطر لى القيام والزعيق مطالبا بالكف ، الوقت
عصر ، البعض يغفو من عناء • سيبدو هـذا منفرا ،
عادت سنوات تضحك بهدوء ، ضـحكا رائقا تذكرت
بكاءها ليلة أمس ، بدا قضاء العصر فى البيت مقبضا ،
نظرت ساعتى ، يمكننى لحاق المحاضرات •

(٧)

يبدو الحديث مصحوبا بصـدى ، تنسال الرؤيا ،
تقول سنوات انهـا ستدعونى ليلة ظهـور النتيجة ،
سترتدى فستانا لامعا ، أبيض محـلى بلآلىء صـغيرة ،
دقيق كايماءة رأس ، تتأبط ذراعى ، ندخل معا ، نذهب
بعد العشاء الى مسرح أو سـينما • سكتت لحظة ضئيلة
كثقب ابرة ، فى بريق البهجـة ألمح الأسى ، فى تدفق
الألفاظ أرى تعثر المعانى واختناقها ، شىء ما لا أقدر
الامساك به ، يدفع مرارة مقطـرة الى ركنى عينيها ،
كأنها أهينت منذ قليل ، ثم كتمت ماحاق بها ، فجـأة
سألتنى : ألا تفـكر فى السـفر ؟؟ قلت : الى أين ؟؟
قالت : الى بلاد الدنيا ، رأيت رحيلنا معـا ، ركوبنا

سفينة لنرى ركنا من الدنيا ، نواجـه البحـر والمدن النائية والغرباء ، نوقف الناس ونتعرف اليهم ، نقيم العـلاقات ونكتب العنـاوين ، نناقش الركاب فى القطارات ، اذ يحاصرنا البرد فى غرفتنا الصـغيرة ، بفندق قديم ، نستعيد طفولتنا، ملامح آيامنا الضائعة • نذكر حديث والدنا عن اسـتانبول ، رحـل اليها فى شبابه آثناء عمله مدرسا ، سنوات تذكر بريق عينيه عنـد حديثـه عما رآه ، ضـفاف البوسـفور ، مآذن استانبول . حواريها الضـيقة ، لكنة الآذان الغريبة • قالت : نبدأ باستانبول ، مارآيك ؟؟ آومآت موافقا ، رفعت ذراعـا ممـدودة الى آعلى ، لندخـل المال ، لن أضـايقك ، ابتسمت ، لو رآيتك معجبا بفتـاة ما فلن أقف حائلا آمامك ، يمكنك تجـاهل وجـودى تماما ، وكأننى لاآشغل حتى جزءا من الفراغ • آبدا •

(٨)

يرسل المصباح ضوءا واهنا كالوحـدة ، البيوت مصلوبة فى سواد الليـل ، آربعـة رجال يقفون آمام البيت ، أبطآت خطاى ، طفلة صغيرة تلمحنى ، تصرخ •

ــ أبلة سنوات • أبلة سنوات •

آحاطت ساقى بيديها ، ابنـة عم محمد البواب ،

تقدموا ، رأيت الشارع ، بلاطه المضلع ، الهواء فى الفراغ ، رائحة غسيل منشور ، رأيت أحد الرجال مرتديا حلة زرقاء بصفين من الزراير النحاسية . رأيت استانبول ، الصور القديم ، فى احداها أحيط سنوات بذراعى ترتدى عقالا عربيا ، أشهر مسدسا بينما يبدو وجهها الطفل رائقا ، رأيت الرحيل ، الأطباق منكفئة فوق طعام بارد ، بينما يهبط داخلى ثقل من رصاص .

ـ أبلة سنوات . أبلة سنوات .

ـ بقيت هنا مغطاة أربع ساعات . لو نعرف تليفونك لاتصلنا بك .

ـ الاسعاف لم تنقلها .

ـ آخذوا عم محمد البواب لسماع شهادته : هو الذى رأى كل شىء .

ـ كان يقف لحظة .

تنفصل الطفلة عنى ، لا أقدر على النظر الى أعلى ، الى شرفتنا ، رأيت شرفات السلالم لامعة . موضع العينين تجويف خال من الزرقة . انتحت الطفلة ركنا ، مثلى تماما ، لم تر لحظة مجيئها الى العالم ، ولا لحظة رحيلها عنه ، لاأتبين ملامح الطفلة ، لا أدرك أصوات المتحدثين ، يدمينى النشيج الوعر .

ـ أه . أبلة سنوات . أبلة سنوات .

فهرس

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٧٨٣ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5272 - 2

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه وربع
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ جمال الغيطانى

- ولد فى التاسع من مايو ١٩٤٥م، قرية جهينة، محافظة سوهاج، صعيد مصر.

- نشأ بمنطقة الجمالية من أحياء القاهرة القديمة.

- عمل مراسلاً حربياً فى جبهة القتال منذ عام ١٩٦٩م وحتى عام ١٩٧٤م.

- عمل محرراً بقسم التحقيقات الصحفية ثم رئيساً للقسم الأدبى عام ١٩٨٥م.

- رئيس تحرير جريدة «أخبار الأدب» الأسبوعية.

- ومن أعماله: «أوراق ... ألف عـام»، و«أرض - أرض ... نى بركات»، و«وقائع حارة ال... و«كتاب التجليات» وغير... القصصية والروائية.

- صدرت أعماله الكامل...

- وحصل على الكثير ... أحدثها جائزة الصداق... ١٩٩٤م.